مدخل

لدراسة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى إسبانيا

للأستاذ الدكتور محمود على مكى

تمهيـــد :

لسنا فى حاجة إلى تأكيد ما خلفته الحضارة الأندلسية على أرض شبه جزيرة إيبريا (أى إسبانيا والبرتغال) من آثار فى كل مظاهر الحياة ، ولعل خير ما يصور هذا التأثير هو اللغة ، فقد احتفظت اللغتان الإسبانية والبرتغالية بقدر كبير من المفردات العربية أصبح جزءا لايتجزأ من ذخيرة هاتين اللغتين ، وهى ظاهرة تميز لغتى هذين القطرين عن سائر اللغات الأوربية . وقد تشاركهما فى ذلك أيضا اللغة الإيطالية التى انتقل إليها عدد لا بأس به من الألفاظ العربية ، وذلك من خلال الوجود العربى الذى استمر قرونا فى جزيرة صقلية وفيما يتاخم هذه الجزيرة من أرض قلورية Calabria فى جنوبى إيطاليا ، على أن ظاهرة التأثير اللغوى العربى أوضح بكثير فى إسبانيا والبرتغال ، إذ إنه كان أطول زمنا وأوسع رقعة . كذلك علينا أن ننبه إلى أن كثيرا من الألفاظ العربية التى انتقلت إلى اللغات الأوربية إنما كان انتقالها عن طريق اللغة الإسبانية بوجه خاص .

وكما اهتم الباحثون بدراسة تأثير اللغة العربية فى الإسبانية والبرتغالية فقد كان موضوع الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى البلدين مما شغل الباحثين أيضا منذ زمن طويل . وطبيعى أن يكون الرعيل الأول من هؤلاء الباحثين من الإسبان منذ منتصف القرن الثامن عشر حينما بدأت مراجعة تاريخ إسبانيا والاهتمام بإعادة النظر فى عصوره الأندلسية بروح أكثر تجردا وأقل تعصبا مما كان عليه الأمر فى القرنين السابقين حينما حملت كراهية الإسلام المفكرين على محاولة طمس الماضى العربى وتجاهل تأثير الإسلام الحضارى .

وقد كان أول من عمل على كتابة التاريخ الإسلامى لشبه الجزيرة فى ظل هذا الاتجاه الجديد هو خوسيه أنتونيو كوندى José Antonio Conde (١٧٦٥ - ١٨٢٠) الذى كان أول مؤلف إسبانى يكتب تاريخا

* ألقى هذا البحث فى الجلسة الثامنة من مؤتمر المجمع بتاريخ ٣ من ذى القعدة سنة ١٤١٥ هـ الموافق ٣ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٥ م .

كاملا لما سماه « الاحتلال العربى لإسبانيا » ، وقد صدر هذا الكتاب بعد وفاته فى سنة ١٨٢٠/١٨٢١[١] .

وكان كوندى قد كتب قبل ذلك بسنوات (فى ١٧٨٧) مقدمة للمعجم الإسبانى اللاتينى العربى الذى وضعه الراهب فرانسسكو كانيس جعل عنوانها « أهمية معرفة اللغة العربية لدراسة تاريخ إسبانيا »[٢] . وفى هذه المقدمة التى بين فيها أنه لا غنى عن معرفة العربية لتبيين أصول كثير من الألفاظ الإسبانية أشار أيضا إلى أن هذه المعرفة ضرورية لتبيين أصول عدد كبير من الأعلام الجغرافية الإسبانية ، ثم طرح بعد ذلك مشروعا طموحا لكتابة « معجم جغرافى لإسبانيا » ، ووضع تخطيطا لمواد هذا المعجم واقترح أسماء من يمكنهم العمل فيه .

وبعد فرانسسكو كوديرا Francisco Codera (١٨٣٦ - ١٩١٧) مؤسس المدرسة الاستشراقية الإسبانية الحديثة ، وقد كان من أكثر الباحثين تجردا ونزاهة فى الحكم على الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا . وإليه يرجع الفضل فى نشر ما سُمّى بالمكتبة الأندلسية التى أصدر منها عشرة مجلدات ، وكان معظم هذه المجلدات معاجم لتراجم علماء الأندلس . وقد أمدته هذه الكتب بعدد كبير من الأعلام الجغرافية ، واستهوته مقابلة هذه الأسماء على أسماء المواضع الإسبانية الحالية ، فقام برصدها فى بطاقات أورثها تلاميذه من بعده ، فانتفعوا منها فى دراساتهم .

وأبرز هؤلاء التلاميذ ثلاثة ، أولهم إدواردو ساڤيدرا Eduardo Saavedra (١٨٢٩ - ١٨٩٨) الذى نشر دراسة قيمة بعنوان « جغرافية إسبانيا كما يصورها كتاب الأدريسى »[٣] . والثانى هو فرانسسكو سيمونيت (١٨٢٩ - ١٨٩٧) صاحب الدراسة الخاصة «بوصف مملكة غرناطة بحسب كتاب معيار الاختبار لابن الخطيب»[٤] وفيها عنى بمقابلة الأعلام الجغرافية فى كتاب الوزير المؤرخ المشهور لسان الدين بن الخطيب على أسماء المواضع الحالية فى آخر دول الإسلام فى الأندلس ، وهى التى تشمل غرناطة والمرية ومالقة . وأما المستشرق الثالث فهو أليمانى بولوفر الذى نشر دراسة وافية حول « جغرافية شبه جزيرة إيبريا طبقا لكتابات الجغرافيين العرب»[٥] .

وقد شارك بعض العلماء الأوربيين فى بحث موضوع الأعلام الجغرافية ذات الأصول

العربية . وكان من أولهم هامر بورجشتال فى بحث نشره فى سنة ١٨٥٤(٦) ، وقد سجل فيه أسماء ٨٣٣ موضعا ، غير أن معظم ما أورده من اشتقاقات هذه الأسماء من الأصول العربية كان خاطئا مما ذهب بقيمة هذا البحث المبكر فى الموضوع .

أما فيما يتعلق بالبرتغال فإن أهم ماتم من دراسات حول أعلامها ذات الأصول العربية هى التى قام بها المستشرق البرتغالى دافيد لوبس(٧) .

وقد توالت بعد ذلك أبحاث جزئية اشترك فى إصدارها باحثون إسبان وأوربيون حول أعلام بعينها لم تكن أصولها العربية معروفة ، فاستطاع هؤلاء إماطة اللثام عنها ، كما أحرزت الدراسات الخاصة بالموضوع تقدما كبيرا بفضل ماقام به عدد من اللغويين من أبحاث حول القواعد الصوتية والصرفية التى حكمت انتقال الألفاظ العربية إلى الإسبانية . وأهم هذه الأبحاث هى التى قام بها أرنالد شتايجر فى كتابه حول « صوتيات لغة أهل الأندلس وصقلية»(٨) ، ورامون منندث بيدال فى كتابه « أصول اللغة الإسبانية»(٩) ، ثم الدراسة الجامعة التى اضطلع بها عضو مجمعنا المراسل فيديريكو كورينتى ، وهى بعنوان « تخطيط نحوى لمجموعة اللهجات الأندلسية »(١٠) .

وأول دراسة جامعة للأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية هى التى قام بها العالم الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس بعنوان «دراسة للأعلام الجغرافية العربية فى إسبانيا »(١١) وقد جمع فى هذا الكتاب أسماء نحو ألف وخمسمائة موضع أرجعها لأصولها العربية وألحق بالكتاب قائمة بنحو أربعمائة وخمسين علما رجح أنها من أصول عربية وإن لم يستطع معرفة الأصول التى أخذت عنها . وهو جهد تتجلى فيه سمات كل عمل ريادى بما فيه من ميزات ووجوه نقص ، فقد كان موفقا فى تتبع أسماء هذا العدد الكبير من أسماء المواضع وفى الاهتداء إلى أصول اشتقاقها ، غير أن الكثير من المواضع الأخرى قد فاته ، فمن المؤكد أن قائمة الأسماء تزيد على ما جمع أضعافا مضاعفة ، وأن فى تحقيقه لأصولها ما يحتاج إلى تصحيح وإعادة نظر فى ضوء ما تكشفت عنه النصوص والدراسات الكثيرة التى نشرت خلال السنوات الأخيرة . وعلينا أن نذكر أن قائمة أسين بلاثيوس قد وضعت منذ أكثر من نصف قرن أحرزت خلاله الدراسات

الأندلسية تقدما هائلا سواء من ناحية الكم أو الكيف .

ملاحظات عامة :

١ - كان شبه جزيرة إيبريا منذ أقدم عصور التاريخ ملتقى لهجرات كثيرة متعاقبة قادمة إليها من الشرق أو من شمال إفريقيا أو من الشمال الأوربى . وقد كان الفينيقيون من أول الجماعات التى هاجرت من السواحل الشامية وامتدت مستوطناتها على طول الساحل الإفريقى الشمالى ، ثم فى جنوبى إسبانيا حيث أنشأوا عددا من المدن التى كانت من أزهر مدن العالم القديم . ومنها جادر Gadir ومالاكا Malaka . ويرجع تاريخهما إلى نحو القرن الحادى عشر قبل الميلاد . ومن المعروف أن الفينيقيين شعب سامى وأن لغتهم تنتمى إلى نفس المجموعة اللغوية التى تنتسب إليها العربية . فلفظ «جادر» مشتق من القدرة ، وقد حرفه الرومان إلى جادس Gades وحافظ العرب على صيغة اللفظ فأطلقوا على المدينة اسم قادس ، وهى بإسبانية اليوم Cádiz . أما مالاكا فاسمها مشتق من لفظ الملك وأطلق عليها العرب اسم مالقة ، وعرف الرومان هذا الاسم ولو أنهم أطلقوا عليها اسما آخر هو ترجمة للفظ الفينيقى فسموها Reggio أو Reyyo المشتق من لفظ Rex أى الملك ، وعرف العرب هذا الاسم أيضا فسموا به المنطقة التى كانت مالقة قصبتها ، وكانوا يعرفون معنى اللفظ ، فابن سعيد يقول فى وصف مالقة «ويكفيها من الإطناب مايتضمن شرح اسمها ، إذ معنى ريُّه عند النصارى (يعنى الرومان) سلطانة ، فهى سلطانة البلاد »(١٢) .

٢ - وخلال القرن السادس قبل الميلاد نشأت على سواحل شمال إفريقيا دولة قوية جديدة هى قرطاج Cartago والقرطاجيون ينحدرون من الفينيقيين وهم ورثة دولتهم ، وقد استطاعوا فى امتدادهم على سواحل البحر المتوسط أن يستولوا على أجزاء كبيرة من جنوبى إسبانيا وسواحلها الشرقية ، واختطوا مدينة سموها قرطاجة الجديدة ، وهذا هو اسمها الرومانى Cartago Nova ، ولم يبتعد العرب فى تسميتها كثيرا عن هذا الاسم الرومانى ، إذ أطلقوا عليها قرطاجنة وهو بالإسبانية اليوم Cartagena ، وما زالت هذه المدينة تعد من أهم القواعد البحرية الإسبانية .

٣ - وعلى أرض شبه الجزيرة أنشأ القرطاجيون حضارة زاهرة استمرت على مدى نحو ثلاثة قرون ونصف قرن . ثم بدأ النزاع بينهم وبين الرومان فدارت بين الجانبين حربان طويلتان الأولى كان ميدانها جزيرتا صقلية وسردانية ، وذلك فيما بين سنتى ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م. ثم تجدد القتال فيما يعرف باسم الحرب البونية الثانية بين سنتى ٢١٨ و ٢٠٢ ق.م. وانتهت بهزيمة القرطاجيين واندثار دولتهم فى شبه الجزيرة . ومنذ هذا التاريخ بدأ غزو الرومان لإسبانيا ، ولكنهم قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل أهل البلاد ، فلم يتمكنوا من بسط سيطرتهم على البلاد إلا بعد قرنين من الزمان . وابتداء من القرن الميلادى الأول تبدأ البلاد فى الاصطباغ بالصبغة الرومانية ، فيتخذ أهلها اللاتينية لغة لهم ، ويبدأ الرومان فى تقسيم البلاد إلى مقاطعات إدارية وفى تشييد عدد كبير من المدن الجديدة، وكان الرومان مغرمين بالعمران والعناية بتشييد المبانى البالغة الفخامة .

٤ - وفى أواخر القرن الرابع الميلادى بدأ انحلال الامبراطورية الرومانية ، فتعرض شبه جزيرة إيبريا لغزو القوط ، وهم شعب جرمانى بدوى شديد المراس ، واستطاع هؤلاء فى سنة ٤٠٩ للميلاد الاستيلاء على شبه الجزيرة . ولم يضف القوط شيئا إلى عمارة الرومان ، بل إن الاضمحلال أصاب كثيرا من المدن التى أنشأها الرومان حتى كاد كثير منها يتلاشى ويندثر . وأما الريف فقد كان أسوأ حالا ، وتحول المزارعون إلى مايشبه العبيد(١٣) .

٥ - وحينما فتح العرب شبه الجزيرة لم يروا حاجة إلى التوسع فى إنشاء مدن جديدة ، وإنما اكتفوا بتنمية المدن التى أنشأها الرومان والتوسع فى عمارتها ، واحتفظوا بأسمائها الرومانية القديمة محرفة بعض الشئ بما يتفق مع طبيعة لغتهم مع اختصارها قليلا فمثلا مدينة Hispalis أصبحت إشبيلية ، و Caesar Augusta (أى مدينة القيصر أغسطس) : سرقسطة ، و Augusta Emerita : ماردة . وTarraco : طركونة . وهناك مدن كانت فى طريقها إلى الضمور والاضمحلال مثل Iliberris التى سموها إلبيرة ، فرأى المستوطنون العرب أن ينتقلوا إلى موضع مجاور لها كان قلعة صغيرة ، فاتخذوها قاعدة وحاضرة للإقليم بعد أن تزايد

العمران فيها وإن كانوا قد احتفظوا باسمها اللاتينى أيضا ، وهى غرناطة Granada .

مدن عربية جديدة :

لابن خلدون فى « مقدمته » مقولة تلقفها أهل العصبية من المستشرقين المبغضين لحضارة العرب والإسلام ، وهى « أن المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب ... وذلك لقلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن ... فى المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعى »(١٤) . والحقيقة أن ابن خلدون حينما تحدث عن العرب فى هذا النص وفى غيره من نصوص الكتاب فهو إنما يقصد الأعراب البدو . وإلا فإننا نجد العرب الذين دخلوا الأندلس قد اختطوا فى هذه البلاد مدنا تكذب تلك المقولة ، صحيح أن هذه المدن الجديدة كانت قليلة بالقياس إلى المدن القديمة التى كانت من منشآت الفينيقيين أو الرومان ، ولكنها كانت جيدة الاختطاط وراعى فيها مؤسسوها حسن اختيار المواقع ومايضمن لها العمران من طيب الهواء والمياه والمزارع . ونورد فيما يلى بعض هذه المدن المستحدثة فى عهد المسلمين والتى كانت عامرة مزدهرة أثناء حكمهم للبلاد ثم ظلت كذلك بعد استيلاء المسيحيين عليها ، مما يدل على أن العرب كانوا يحسنون اختيار المواقع لبناء المدن ، وسنرى كيف ظلت هذه المدن المستحدثة محتفظة بأسمائها التى أطلقها عليها العرب .

- جبل طارق Gibraltar ، وهو أول موقع نزل به فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد ، وقد عرف المسلمون منذ البداية قيمة هذا الموقع الاستراتيجية ، فعملوا على العناية بتحصينه ، وتحول فى ظل الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن ابن على (سنة ٥٥٥/١١٦٠) إلى مدينة كبيرة كانت تدعى «جبل الفتح» ، وظل طوال دولة الإسلام أحد المعابر الرئيسية بين الأندلس والمغرب ، وتداوله المسلمون وأعداؤهم خلال القرن التاسع الهجرى حتى انتهى الأمر بسقوطه الأخير فى أيدى المسيحيين ، وكان سقوطه نذيرا بنهاية دولة الإسلام فى الأندلس ، وصور ذلك الشاعر البسطى فى بكائية مؤثرة يقول فيها :(١٥)

وقائلة : ما لى أراك مقطبا
كأنك للتقطيب هددت بالذبح

فقلت : دعينى الحزن فرض على الورى
أما قد حوى أعداؤنا «جبل الفتح»

حرام علينا البشر والسمح بعده
وفى القلب من آلامه أعظم الجرح

غير أن إسبانيا المسيحية لم تنعم كثيرا بالاستيلاء على هذا الموقع الذى كان يتحكم فى المدخل الغربى للبحر المتوسط ، فلم تمض قرابة قرنين حتى انتزعته منها بريطانيا العظمى فى سنة ١٧٠٤/١١١٥ ، وتحول فى ظل السيادة البريطانية إلى مستعمرة بالغة الخطر ، مازالت حتى الآن مثار نزاع بين إسبانيا وإنجلترا .

- الجزيرة الخضراء Algeciras ، وهى من أهم مرافئ جنوبى إسبانيا ، ويرجع بناؤها إلى بداية نزول المسلمين بها إبان الفتح ، وتعد من أهم المعابر بين المغرب والأندلس ، وتقع على مدخل مضيق جبل طارق مواجهة لمدينة سبتة المغربية . واختصر الإسبان اسمها إلى الجزء الأول من اسمها العربى . ومن الطريف أن هذه المدينة البحرية الجميلة تقع على مصب نهر صغير كان العرب يدعونه وادى العسل(١٦) وقد ترجم الإسبان اسمه العربى ترجمة حرفية ، فأطلقوا عليه Rio de la Miel .

- طريف Tarifa ، وهى ثالثة المعابر بين الأندلس والعدوة المغربية على مضيق جبل طارق ، فى أقصى جنوبى إسبانيا ، ومازالت حتى اليوم تحمل اسم أول قائد مسلم اضطلع بحملة الاستكشاف الأولى قبل طارق بن زياد ، وهو أبو زرعة طريف بن مَلّوك مولى موسى بن نصير ، وكان موسى قد وجهه على رأس سرية لاختبار الشاطئ الأندلسى ، وكان ذلك مقدمة للفتح الكبير .

- قلعة أيوب Calatayud ، وهى منسوبة إلى ثالث ولاة الأندلس أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير ، وتقع فى الثغر الأعلى إلى الجنوب الشرقى من سرقسطة .

- مدينة سالم Medinaceli ، عاصمة الثغر الأوسط فى عصر الخلافة ، وتدين بفضل إنشائها واسمها الذى لا يزال يطلق عليها إلى أحد قادة البربر سالم بن ورعمال وكان من موالى بنى مخزوم ، وهى الآن مدينة متوسطة تتبع محافظة سرية Soria . وكان بها قبر المنصور بن أبى عامر .

- وادى الحجارة Guadalajara من كبريات مدن الثغر الأعلى ، وكان يطلق عليها أيضا اسم « مدينة الفرج » نسبة إلى منشئها الفرج بن مسرة بن سالم حفيد ذلك القائد البربرى سالم بن ورعمال الذى أنشأ مدينة سالم .

وهى الآن عاصمة إحدى محافظات إقليم قشتالة ، وتقع على الطريق بين مدريد وسرقسطة .

وقد انتقل اسم المدينة إلى أمريكا فهو يطلق الآن على ثانى مدن المكسيك .

- مرسية Murcia ، وهى مدينة مستحدثة أمر بإنشائها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ (٨٣٢) وتقع على نهر كان العرب يدعونه النهر الأبيض أو نهر شقورة Rio Segura وهو الاسم الذى يطلق عليه الآن ، ويروى منطقة مرسية ذات الخصوبة البالغة ، وكان الجغرافيون القدماء يشبهونه بنهر النيل ، ومن أجل هذا فقد نزل جند مصر هذه المنطقة منذ أول الفتح . وقد تزايد عمران المدينة خلال عصرها الإسلامى ، وإليها ينتسب عدد من كبار رجال الفكر نذكر منهم اللغوى الكبير ابن سيدة الضرير صاحب أول معجم دلالى هو «المخصص» ، وثلاثة من أعلام التصوف : هم محيى الدين ابن عربى نزيل دمشق وابن سبعين نزيل مكة ، وابو العباس نزيل الاسكندرية ووليها الكبير .

- بطليوس Badajoz ، وكان منشئها الثائر على إمارة بنى أمية بقرطبة عبد الرحمن ابن مروان المعروف بالجليقى ، وذلك بعد مسالمته للأمير محمد بن عبد الرحمن فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) وكانت فى أول أمرها تابعة لمدينة ماردة Mérida قاعدة غرب الأندلس ، ثم أخذت فى النمو والاتساع حتى أصبحت فى عصر ملوك الطوائف حاضرة لواحدة من أكبر الممالك ، وهى دولة بنى الأفطس . وهى الآن عاصمة لإحدى محافظتى الإقليم الذى يدعى Extremadura (أى الطرف الأقصى) وتقع فى أقصى غربى إسبانيا على حدودها مع البرتغال . أما الاسم الذى أطلق على المدينة فمن الواضح أنه غير عربى . وقد اختلف اللغويون على أصل اشتقاقه ، على أن اتخاذ اسم عجمى لمدينة بنيت فى العهد الإسلامى يبدو أمرا غريبا ، ولكن تفسيره يكمن فى ظاهرة الازدواج اللغوى الذى كان فاشيا فى الأندلس سواء فى ذلك المسلمون والنصارى . وسنرى على هذه الظاهرة أمثالا كثيرة .

- قلعة رباح Calatrava ، وهى بلدة صغيرة تقع الآن فى غربى محافظة لامانشا La Mancha وهو الذى كان يعرف فى أيام المسلمين باسم « الجوف » . وقد ذكر بعض العلماء ومنهم تسايبولد وأسين بلاثيوس أن بناء القلعة يرجع إلى على بن رباح ، وهو

أحد التابعين الذين دخلوا الأندلس فى بداية الفتح مع موسى بن نصير . غير أن ذلك لايبدو مؤكدا .

- البسيط Albacete ، وهى مدينة محدثة أنشئت فى عصر الموحدين فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ويرجع اسمها إلى وقوعها فى سهل منبسط ، وهى الآن بعد أن اتسع عمرانها عاصمة لإحدى محافظات الإقليم المعروف باسم لامانشا ، متاخمة لمحافظتى مرسية وبلنسية .

- المرية Almeria ، وهى مدينة محدثة أمر ببنائها الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر لدين الله فى سنة ٣٤٤ (٩٥٤) وسرعان ما أصبحت قاعدة الأسطول الأندلسى فى البحر المتوسط ، ثم نمت نموا كبيرا فى العصور التالية ، وأصبحت من أشهر مراسى الأندلس وأعمرها ، إذ كانت مركزا تجاريا يربط البلاد بموانى الشمال الإفريقى والمشرق ، وكانت ثانية مدن الدولة فى عصر بنى الأحمر بعد العاصمة غرناطة ، وهى الآن عاصمة إحدى محافظات الجنوب الشرقى ، متاخمة لمحافظتى غرناطة ومرسية . أما اشتقاق الاسم فمختلف فيه ، فهناك من يقول إنها تصغير غير قياسى للفظ « المرآة » لصفاء ماء البحر لديها ، وهناك من يقول إن اللفظ صفة للمدينة ومعناه « الطيبة » وهو تفسير يذكرنا بالعبارة الشعبية التى يرددها أهل الاسكندرية تمدحا ببلدهم : « اسكندرية مَرِيَّة » .

- المنكب Almuñecar ، مدينة ساحلية صغيرة تعد من مرافئ غرناطة ، ويبدو أنها قديمة البنيان أنشئت بعد فتح الأندلس بقليل إذ يرد ذكرها فى أقدم المصادر الأندلسية ، وقد ارتبط اسمها بحدث تاريخى له أهميته الكبرى ، فقد كانت أول موضع ينزله عبد الرحمن بن معاوية الداخل « صقر قريش» بعد فراره من الشرق ومغامرته التى انتهت بإقامته لدولة بنى أمية فى الأندلس ، وذلك فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) . وبهذه المناسبة أذكر أن بلدية المدينة أقامت منذ سنوات تمثالا كبيرا فى أكبر ميادينها لعبد الرحمن الداخل وهو على صهوة جواده مذكرا بتلك اللحظة التاريخية . أما أصل اشتقاق الاسم فهو من الفعل « نكّب » أى مال وانحرف ، وفى ذلك تصوير لموقع المدينة ، فهى تقع على سفح منحدر بين الجبل والبحر . وكانت المنكب مشتهرة - ولا تزال -

بمزارع قصب السكر ، وهى صناعة أدخلها العرب لهذه المنطقة لملاءمتها لذلك المحصول .

- قصر آش ، وتكتب أيضا قصرش Cáceres ، وهى مدينة محدثة فى عصر متأخر ، إذ لا نجد لها ذكرا فى المصادر الأندلسية قبل عصر المرابطين فى أوائل القرن السادس الهجرى ، ولم تبق فى أيدى المسلمين إلا نحو قرن من الزمان ، إذ استولى عليها ملك ليون يعاونه جيش من قشتالة ومن فرسان قلعة رباح فى سنة ٦٢٤ (١٢٢٧) بعد حصار استمر خمس سنوات . واسم هذه المدينة يبدو مولدا (hibrido) مؤلفا من لفظ «قصر» العربى و « آش » العجمى ، فهو إذن ثمرة لما سبق أن ذكرناه حول ظاهرة الازدواج اللغوى فى الأندلس . ولفظ آش هو الذى نجده ملحقا بـ « وادى » فى اسم مدينة « وادى آش Guadix » التى كانت من كبريات المدن التابعة لغرناطة ، وأصله إيبيرى قديم (Acci) ، وهو يعنى الماء . وقد نمت تلك المدينة الحصينة بعد استيلاء المسيحيين عليها حتى أصبحت الآن عاصمة لإحدى محافظتى إقليم إكستريمادورا Extremadura فى غرب إسبانيا (والأخرى هى محافظة بطليوس التى أسلفنا الحديث عنها) .

- ونختم هذا الحديث عن المدن التى يرجع للمسلمين فضل استحداثها بتلك المدينة التى تتمثل فيها العبقرية الأندلسية ، وهى مجريط التى تحولت بمضى الزمن إلى عاصمة إسبانيا منذ سنة ١٥٦٢ حتى اليوم بعد أن تحرف اسمها إلى « مدريد » Madrid .

وإنشاء مدريد يرجع إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (الذى حكم بين سنتى ٢٣٨ و ٢٧٣/ ٨٥٢-٨٨٦) . وكان هذا الأمير حريصا على تحصين ثغور الأندلس فيما بين الثغر الأعلى (سرقسطة) والثغر الأدنى (طليطلة) ، ومن هنا كان اهتمامه بعمارة المدينتين اللتين تحدثنا عنهما من قبل وهما : وادى الحجارة ومدينة سالم ، ثم رأى أن يعزز الخطوط الدفاعية الفاصلة بينه وبين مملكة ليون ، فعمل على إنشاء سلسلة من القلاع الحصينة على السفوح الجنوبية لجبال وادى الرمل Guadarrama التى تشق الهضبة الوسطى . ويذكر المؤرخون من هذه القلاع : طلمنكة Talamanca وولموش Olmos وقنالش Canales وقلعة خليفة Calatalifa . ونلاحظ أن جميع هذه الأسماء فيما عدا الأخير عجمية ، وهو ما يؤكد ظاهرة الازدواج اللغوى التى تحدثنا عنها من قبل .

وقد نمت مجريط فى ظل المسلمين فتحولت من قلعة منيعة إلى « مدينة شريفة » على حد قول ابن عبد المنعم الحميرى(١٧) ، وذلك بفضل النظام الذى وفق المسلمون إليه فى إمدادها بالماء اللازم للتوسع فى مرافقها ، وذلك بعد أن اكتشفوا أن المدينة تقوم على بحيرة من المياه الجوفية الصالحة للشرب . فكان أن عملوا على حفر عدد كبير من الآبار ثم التوصيل بينها بشبكة معقدة من القنوات تتجمع تحت الأرض فى عدد من الصهاريج ، ومنها تمتد أنابيب توصل المياه إلى أحياء المدينة ومنازلها . وبفضل هذا النظام الهندسى الذى نماه المسيحيون بعد ذلك اتسعت المدينة وازداد عمرانها حتى وقع الاختيار عليها لتكون عاصمة لإسبانيا فى عهد الملك فيليب الثانى سنة ١٥٦٢ . وقد أفاض فى شرح هذا النظام الباحث الإسبانى خايمى أوليفر أسين فى كتابه « تاريخ اسم مدريد »(١٨). وفصلنا الحديث عنه فى كتابنا الذى أفردناه للمدينة : « مدريد العربية » ، القاهرة ١٩٦٧

أما اسم « مجريط » الذى أطلقه المسلمون على المدينة فقد كان مثار خلاف عريض بين المؤرخين واللغويين . وقد انتهى خايمى أوليفر أسين فى كتابه الذى أشرنا إليه إلى أن اللفظ يتألف من لفظ عربى هو « مجرى » ثم اللاحقة « يط » المأخوذة من اللاتينية etum والدالة على التكثير ، أى المكان الذى تكثر فيه المجارى ، والمقصود بالمجارى تلك القنوات الجوفية التى كانت تؤلف شبكة من الأنابيب هى التى كان اعتماد السكان عليها فى إمدادهم بما يلزمهم من مياه(١٩) . على أن اللغوى الكبير فيديريكو كورينتى عضو مجمعنا المراسل كان له رأى آخر يبدو أنه أكثر اتساقا مع المنهج اللغوى السليم ، وهو أن اللفظ العربى تطور من اللاتينية المتأخرة Matrice الذى يعنى « المستودع الأم » للمياه ، وهو ما يقابل بالعربية « مطريج » ، ثم حدث قلب موضعى بين حروف اللفظ – وهذه ظاهرة لغوية تتكرر فى كثير من الأسماء فأصبح « مجريط » وانتهى فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى « مدريد »(٢٠) وبهذا يكون الاسم مأخوذا من لفظ لاتينى خالص ، وهو أمر لايستغرب إذا ذكرنا أن معظم القلاع التى أنشأها الأمير محمد مع مجريط كانت تحمل أسماء عجمية .

ومن العرض السابق يتبين أن عدد المدن الكبرى التى استحدثها العرب أثناء حكمهم شبه الجزيرة الإيبيرية والتى تحولت بعد ذلك إلى عواصم للمحافظات كان قليلا بالقياس إلى المدن القائمة عند الفتح العربى مما بُنى فى ظل الحضارات السابقة . هذا على حين نرى الأسماء العربية شائعة شيوعا كبيرا بين المدن الثانوية والقرى . وليس فى هذا مأخذ على الحضارة العربية الأندلسية ، بل لعله شاهد على الحس الحضارى الذى اتسم به العرب فى استيطانهم لما فتحوه من بلاد فى المشرق والمغرب ، فهم حيث رأوا مدنا قائمة لم يروا حاجة لتغيير بنيتها أو أسمائها ، وإنما أضافوا إلى عمرانها ماجعلهم أولى بها من منشئيها . ويكفى أن نشير إلى ماقاموا به فى مدن قديمة كانت من إنشاء الفينيقيين أو الرومان ، مثل مالقة وقرطبة وإشبيلية وطليطلة وسرقسطة ، فقد نموا عمران هذه المدن وحولوها إلى حواضر كبرى زاخرة بالنشاط من كل نوع . ولنتأمل تاريخ مدينة مثل قرطبة وهى من المدن التى أسسها الرومان فقد ظلت على عهدهم ثم فى أيام القوطيين مدينة متوسطة ، فلما اتخذها مسلمو الأندلس قاعدة لهم أخذ عمرانها فى النمو حتى أصبحت فى ظل الخلافة الأموية أكبر الحواضر فى الغرب كله سواء الإسلامى أو المسيحى ، وبلغ عدد سكانها نحو مليون نسمة ، وكان فيها من العمائر والقصور والمساجد والحمامات والمتنزهات والأسواق مالم يكن يضاهيها فيه إلا بغداد والقسطنطينية . وحينما استولى القشتاليون على قرطبة فى سنة ٦٣٣ (١٢٣٦) أخذ عمرانها فى التراجع حتى أصبحت من مدن الدرجة الثالثة وإن كانت قد استعادت بعض عظمتها القديمة خلال السنوات الأخيرة .

أما ظاهرة شيوع الأسماء العربية بين المدن الصغيرة والقرى والقلاع فإنها تدل على مدى عناية مسلمى الأندلس بتعمير الريف ومايتطلبه ذلك من استنباط المياه وشق القنوات وتحسين نظم الرى . وما أكثر ماسمعنا الفلاحين فى منطقة شرق الأندلس - وهى أخصب أراضى إسبانيا وأغناها - يشهدون بأن نظم الرى التى يستخدمونها هى التى ورثوها عن أسلافهم المسلمين ، ويدل على ذلك أن كثيرا من الألفاظ المتعلقة بالمياه والرى والفلاحة مما أصبح جزءاً من المعجم الإسبانى مأخوذ عن العربية ، كما يتمثل ذلك فى العدد الكبير من مؤلفات

الأندلسيين فى الفلاحة والنبات والتقاويم الزراعية مثل كتب ابن حجاج القرطبى وأبى عبيد البكرى والغافقى وابن البيطار وابن العوام الإشبيلى وابن الرومية .

ويرجع اهتمام الفاتحين العرب بالريف ونشاطهم فى تعميره إلى فترة مبكرة ترجع إلى أول عهدهم بالفتح إذ تخبرنا المصادر التاريخية أنه حينما قدم أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبى واليا على الأندلس سنة ١٢٥ (٧٤٣) راعه تفاقم النزاع بين البلديين - وهم الجيل الأول من الفاتحين - والجند الشامى - وهم الجيل التالى لهم ، فاستقر رأيه على أن يخرج الشاميين من قرطبة ويسكنهم فى نواحى الأندلس المختلفة ، فاختارت كل طائفة من طوائف هؤلاء الجند منطقة تشبه المنطقة التى قدموا منها ، وهكذا استقر المصريون منهم - وكانوا أكثرهم عددا - فى ثلاث نواح من الريف هى تدمير (مرسية) وأكشونية (فى جنوب البرتغال) وباجة (فى البرتغال الوسطى) ، ونزل جند حمص فى إشبيلية ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند دمشق فى إلبيرة (غرناطة) وجند قنسرين فى جيان(٢١) . وبهذا تحول أولئك المحاربون بعد استقرارهم فى تلك المناطق الريفية إلى زراع مقتدرين يعملون على استصلاح الأراضى واستثمار الحقول وتنمية الموارد . والملاحظ أن العرب ومن كان معهم من الموالى كانوا يفضلون السهول والبسائط ، على حين استقر شركاؤهم فى الفتح من البربر فى المناطق الجبلية التى كانت تشبه البلاد التى قدموا منها فى شمال إفريقيا(٢٢) . ولم يكن من الغريب أن تتسمى القرى والقلاع التى نزل بها كلا الفريقين بأسماء الأسر العربية أو البربرية التى عملت على استيطانها .

ضوابط لتعرف الأصول العربية :

تعرضت أسماء الأعلام الجغرافية العربية على ألسنة الإسبان بعد استيلائهم على ماكان بأيدى المسلمين لكثير من التحريف حتى لم يعد من السهل الاهتداء إلى أصولها القديمة . وقد تطلب هذا من الباحثين جهودا مضنية ، ولاسيما حينما كان المعروف من النصوص الأندلسية قليلا ، على أن العقود الأخيرة شهدت نشاطا متزايدا فى تحقيق عدد كبير من تلك النصوص ، وأدى ذلك إلى زيادة معرفتنا بتلك الأصول . كذلك أعان على هذه المهمة ماقام به الباحثون الإسبان من نشر الوثائق

القديمة التى تم بمقتضاها توزيع مااستولى عليه المسيحيون من أرض الأندلس على الفاتحين ، فقد سجلت هذه الوثائق أسماء القرى التى وزعت بصفتها إقطاعات على النبلاء وقادة الجيوش المشتركين فى الفتوح . ومن هذه الوثائق المنشورة أخيرا والمدعوة « بالتوزيعات » (Repartimientos) ماهو خاص ببلنسية وإشبيلية ومالقة وجزيرة ميورقة . وبفضل هذه الوثائق استطاع الباحثون الإسبان ممن يعرفون العربية أو ممن استعانوا بالمتخصصين فى هذه اللغة أن يستكشفوا أصول عدد كبير من أسماء المواضع . ومن حصيلة هذه المعارف أخذ اللغويون فى وضع ضوابط لتبين الأصول العربية لتلك الأسماء . وكان من أسبق هؤلاء الباحثين أرنالد شتايجر فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل عن « صوتيات اللهجة الأندلسية »(٢٣) وماطرأ على الألفاظ العربية التى انتقلت إلى الإسبانية من تغيرات صوتية . على أن هناك أمرا ينبغى التنبه إليه ، وهو ما استطاع أسين بلاثيوس أن يدركه بحسه اللغوى ، وهو أنه لم تكن هناك لهجة أندلسية موحدة ، بل لهجات عديدة اختلفت باختلاف المناطق ، فلم تكن لغة الخطاب الدارجة التى يتحدث بها أهل غرناطة مثلا هى نفسها لغة أهل بلنسية أو سرقسطة أو غيرها من أقاليم الأندلس ، ومن هنا اختلفت الصور التى تم بها انتقال اللفظ العربى الواحد إلى هذه أو تلك من بقاع إسبانيا . ونضرب على ذلك بعض الأمثلة :

- لفظ « القصر » وهو شائع فى الأعلام الجغرافية الأندلسية نراه قد انتقل بعدة صور تتمثل فى الأعلام الآتية : فهو فى منطقة الثغر الأعلى (أرغون الحالية) Alquézar ، وفى بلنسية Alcácer مع نبر حرف الـ a الأول ، وفى البرتغال {do sal} Alcaçer (وكان العرب يسمون هذا الموضع قصر أبى دانش ، أو قصر الملح) ، وفى سائر أنحاء الأندلس Alcázar .

- لفظ « المدوَّر » ، أصبح فى قرطبة Almodóvar ، وفى أرغون Almudévar

- لفظ « السهلة » ، نجده فى لقنت Alicante فى صورة Adsaila وفى تيروال Azaila : Teruel

- لفظ «الزاوية» : تحول إلى Adsubea أو Adsubia فى لقنت و Azoya فى مرسية و La Zubia فى غرناطة .

- لفظ « البحيرة » : نجده فى صورة Albuhera فى قصراش Cáceres

وفى المدينة الملكية Ciudad Real ، و Albufera فى بلنسية ومرسية وميورقة ولقنت ، و Albuera فى قصراش وبطليوس ، و Albogaira فى المرية .

- لفظ « الخندق » : أصبح Alfandeche فى بلنسية ، وAlhándiga فى مالقة ، و Alfántega فى وشقة و Alfándiga فى لك Lugo .

- لفظ « الضيعة » : نجده معرفا ومنكرا فى صور عديدة : Aldaya فى بلنسية ، و Aldea وهى أشيع الصور ، فهناك ٢٢٩ موضعا فى إسبانيا تحمل هذا الاسم مشفوعا بصفة مميزة ، أو فى صيغة التصغير ، وAdaya فى منورقة Menorca، و Daya فى لقنت ، و Deyá فى جزر البليار .

وللتباين فى صور الكلمة العربية الواحدة أمثلة كثيرة ، نكتفى منها بما ذكرنا . وجدير بالذكر أن لهذه الظاهرة قيمة كبيرة فى إلقاء الضوء على لهجات مختلف مناطق الأندلس ، وذلك لأن هذه الألفاظ العربية لم تنتقل إلى الإسبانية عبر لغة الكتابة الفصيحة ، وإنما من خلال لغة الخطاب الشفاهية ، ومن هنا فإنها تصور لنا الطريقة التى كان الأندلسيون ينطقون بها تلك الألفاظ فى بقاع البلاد المختلفة .

وتتفاوت الأعلام الجغرافية كما ينطق بها الإسبان اليوم فى مدى قربها أو بعدها عن أصولها العربية ، فهناك منها ما يسهل الاهتداء إلى أصولها إذا سلمت من التحريف أو أصابها منه قليل ، ولكن هناك ألفاظا أخرى تعاقبت عليها مراحل من التحريف حتى بعدت كثيرا عن أصولها ، وهنا يصبح الاهتداء إلى صورها الأولى أمرا من العسر بمكان . وحينئذ قد يعين على معرفة أصولها الرجوع إلى الوثائق الإسبانية التى قد تكون سجلت أسماء تلك المواضع فى زمن قريب العهد بوجودها الإسلامى ، هذا إذا أسعدنا الحظ بوجود تلك الوثائق . غير أن ذلك لايتوافر فى جميع الحالات .

ومن أمثلة المواضع التى لانجد صعوبة فى الاهتداء إلى أصولها العربية تلك التى تبدأ بألفاظ مثل القصر Alcázar ، والقلعة Alcalá ، أو Calat بصيغة التنكير ، أو مصغرة فى صورة القليعة Alcolea ، أو التى تحمل اسم علم مثل التى تبدأ بلفظ ابن Aben أو Ben أو اسم قبيلة أو أسرة

بنى Beni ، وسنرى نماذج لأمثال هذه المواضع .

وهناك أسماء تتألف من جزأين : جزء عربى وآخر عجمى ، وهو أمر راجع إلى ما ذكرناه من ظاهرة الازدواج اللغوى bilingüismo التى كانت شائعة فى الأندلس ، فبعض المواضع عجمية الأصول ، غير أنها تحمل فى بدايتها أداة التعريف العربية مثل البونت Alpuente ، فلفظ puente المعرف بأل يعنى القنطرة ، و Almonte ، وهو تعريف عربى للفظ monte الذى يعنى الجبل ، و Fuentealbeitar التى تتألف من Fuente أى عين والبيطار ، و Torrealhaquime (Torre بمعنى برج + Alhaquime الحكيم) و Tordomar (Tor اختصار للفظ الذى يعنى برج + d اختصار لحرف الإضافة Omar + de أى عمر) و Castiel fabit (Castiel بمعنى حصن + Fabit اسم حبيب محرفا) و Villacadima (Villa بمعنى بلدة + قديمة Cadima) . وقد يضاف إلى الاسم العربى لاحقة التصغير الإسبانية مثل Alcazarejo (القصر Alcazar + ejo - وهى إحدى لواحق التصغير) ، و Alcantarilla (القنطرة + illa Alcántara وهى لاحقة أخرى تفيد التصغير) .

وليست نادرة أمثال هذه الحالات من التداخل اللغوى بين العربية واللاتينية أو اللاتينية الدارجة (إسبانية اليوم) . فقد كان الرومان يطلقون على سلسلة الجبال الشاهقة التى تطل على إقليم غرناطة اسم Mons Solarium أى الجبل المشمس ، ونقل المسلمون هذا الاسم مع تعريبه محتفظين بصورته اللاتينية ، فسموه « جبل شُلَيْر » ، وكان يضرب به المثل فى برودته ، ثم أطلقوا عليه اسما عربيا خالصا : « جبل الثلج » وترجمه الإسبان بعد ذلك ترجمة حرفية ، إذ دعوه Sierra Nevada ، ثم نقله الإسبان إلى القارة الأمريكية فتسمت به إحدى الولايات فى الولايات المتحدة وهى الواقعة على السفوح الشرقية لجبال روكى العالية . وكانت هناك قلعة تقع جنوبى مدينة ماردة كان الرومان يدعونها Castrum Colubri ، فترجم العرب هذا الاسم ترجمة حرفية إلى « قلعة الحنش » واحتفظ الإسبان بهذا الاسم العربى محرفا حتى اليوم فى صورة Alanje .

ولعل أكثر مايكشف عن الأصول العربية لأسماء المواضع دلالتها الواضحة على الأعلام العربية سواء أكانت مفردة أو منسوبة إلى الأب في صورة ابن (Aben أو Ben أو Vin) أو على سبيل الكنية : أبو فلان (Abo ، أو Bo) . فمن الأسماء المفردة : طريف القائد الذى ترك اسمه على المدينة الواقعة فى أقصى الجنوب Tarifa ، وسليمان الذى أصبح اسم قرية فى محافظة « البسيط » تدعى اليوم Zulema ، وسالم وهو اسم إحدى قرى بلنسية : Salem ، ومن أسماء الإناث زيدة Zaida فى محافظة سرقسطة ، وسكينة Zucayna فى محافظة قشتليون Castellón . ومن أسماء الأعلام المضافة إلى لفظ Villa (أى قرية أو ضيعة) : Villanazar (قرية نصر) فى محافظة سمورة Zamora ، Villacelama (... سلامة) فى محافظة ليون Leon ، Villambrús (... عمروس) من أعمال برغش Burgos، Villahamete (... أحمد) و Villabráhima (... إبراهيم) ، وكلتاهما من أعمال بلدوليد Valladolid . والملاحظ أن هذه القرى الأخيرة توجد فى مناطق لم تخضع أبدا لسلطان المسلمين ، ولهذا فوجود أمثال هذه الأسماء العربية يبدو غريبا لأول وهلة ، غير أن لهذه الظاهرة تفسيرا سوف نبينه فى موضعه .

ونذكر فيما يلى عددا من أسماء المواضع التى تبدأ بـ «ابن» : فى محافظة بلنسية : Abenromá (ابن رومان) ، Bengéber (ابن جابر) ، Benaguacil (ابن الوزير) ، وفى محافظة لقنت Benasán : Alicante (ابن حسن) ، Benamer (ابن عامر) ، Benalfaqui (ابن الفقيه) ؛ وفى المرية : Abenzuete (ابن سويد) ، Bentarique (ابن طارق) ، وفى البسيط : Abengibre (ابن جبر) ؛ وفى غرناطة Abenzaide (ابن سعيد) وقد كان بنوسعيد - الذين ينتمى إليهم ابن سعيد مؤلف كتاب «المغرب فى حلى المغرب» - هم سادة البلدة التى كانت تدعى «قلعة بنى سعيد» التابعة لغرناطة فلما استولى عليها المسيحيون احتفظت باسمها (Alcalá de Abenzaide) ثم أصبح اسمها الآن «القلعة الملكية» (Alcalá la Real) ، وفى مالقة : Bengalbón (ابن غلبون) ؛ وفى قادس Benamahoma

(ابن محمد) ؛ وفى وادى الحجارة : Benalaque (ابن الحكم) ؛ وفى سُرْيَة Benamira : Soria (ابن عميرة) وفى قصرش : Benafayán (ابن حيان) ، وفى لاردة Bingaña : Lérida (ابن غانية) ؛ وفى ميورقة : Bennasar (ابن نصر) ؛ وفى قشتليون Benasal : Castellón (ابن عسّال) ، وكذلك Vinaroz (ابن عروس) .

ومن الأسماء التى تحمل كُنًى عربية : Abofageg (أبو حجاج) فى محافظة نبرة Navarra ؛ و Albocabe (أبو كعب) فى سُرْيَة ، و Albolafia (أبو العافية) فى قرطبة ، و Albuixech (أبو إسحاق) فى بلنسية ؛ و Boadilla (أبو عبد الله) فى سلمنكة Salamanca ؛ و Bobadilla (أبو عبد الله) فى جيان .

وكثير من أسماء المواضع تحمل حتى الآن أسماء قبائل عربية أو بربرية أو أسر عمرت قرى مازالت تحمل أسماءها . ونذكر فيما يلى بعض هذه الأسماء :

من أسماء القبائل العربية : Alcaicia (القيسية) فى بلنسية ؛ Almoradi (المرادى) نسبة إلى بنى مراد وهى قبيلة يمنية معروفة ، فى لقنت ؛ و Alhendin (همدان) وهى إحدى كبريات القبائل اليمنية أيضا ، فى غرناطة ؛ و Ojén (خُشَيْن) ، إحدى بطون قضاعة ، فى مالقة ؛ Alfamin ، وكذلك Alaminos, Alamin (الفهميين ، نسبة إلى بنى فهم ، إحدى قبائل قيس عيلان بن مضر) ، فى طليطلة ووادى الحجارة .

ومن أسماء القبائل البربرية Albornoz فى قرطبة وإشبيلية ، وكذلك Albornos فى آبلة Avila ، وهو بُرْنُس بن بر ، جد شعب كبير من شعوب البربر يدعى فى صيغة الجمع بالبرانس ، وإليه تنتمى مجموعة كبيرة من القبائل مثل كتامة وصنهاجة ومصمودة وأوربة وهوارة ؛ ومنها Azuaga فى بطليوس ، وهى قبيلة زواغة إحدى قبائل البرانس ؛ Cehegin فى مرسية ، وهو اختصار للفظ «الصنهاجيين» ؛ Zaneta فى قشتليون ، و Ceneta فى مرسية ، واللفظان مأخوذان من «زناتة» ؛ Mequinenza فى سرقسطة ، وهى مكناسة إحدى قبائل زناتة ؛ Mestanza فى Ciudad Real أى المدينة الملكية ، وهى مسطاسة ، بطن من ازداجة إحدى قبائل البرانس ؛ أندارة Ondara فى لقنت ،

وهى إحدى قبائل هوارة ؛ Alcalá de los Gazules وهى قلعة بنى جزولة ، وهم أيضا من البرانس ، فى قادس ؛ وغمارة Gomara فى سرية ، وغمارة من قبائل الريف المغربى المعروفة وهى من البرانس ؛ Zacatena سكتان ، فى المدينة الملكية ، وسكتان إحدى بطون مصمودة ؛ Orba أوربة فى لقنت ودانية Denia ، وأوربة إحدى قبائل البرانس .

وأما المواضع التى تحمل أسماء أسر عربية فهى من الكثرة بحيث تستعصى على الاستقصاء ، ومعظمها يبدأ بلفظ «بنى» ، ونذكر بهذه المناسبة أننا أحصينا بصورة مبدئية عددا من هذه الأسماء فوجدناها فى إسبانيا أكثر مما نجده فى بعض البلاد العربية ، وتوجد معظم هذه الأسماء فى منطقة شرق الأندلس : المرية ومرسية ولقنت وبلنسية وقشتليون وطركونة وجزر البليار . ونذكر من هذه الأسماء :

فى المرية Benitagla بنى تغلب ؛ فى مرسية Beniaján بنى عجّان ، فى لقنت : Benicais بنى قيس ، Beniasim بنى عاصم ، Beniali بنى على ، Benigálip بنى غالب ، Benimaclet بنى مخلد ، Benijáfar بنى جعفر ، Benihomar بنى عمر ، Benihumeya بنى أمية ، Benifató بنى فتحون ، Benifarés بنى حارث ، Benisa بنى عيسى ، Beniomer بنى عمير ؛ وفى بلنسية Benicalaf, Benicalap بنى خلف ، Benicanena بنى كنانة ، Benifayró بنى خيرون ، Benifayó بنى حيون ، Beniganim بنى غانم ، Benimuslem بنى مسلم ، Benisanó بنى سحنون ، Benisoda بنى سودة ؛ Benibrahim بنى إبراهيم ، Benifaraig بنى فرج ، Beniflá بنى فلاح ، Benimámet بنى محمد ، Benimodó بنى مودود ، Beniopa بنى أبًا (واسم أبًا ليس عربيا وإنما هو حفيد لأمير قوطى كان من بين كبار الفقهاء المسلمين) ، Benioquer بنى عقيل ؛ وفى قشتليون Benicásim بنى قاسم ، Benigasló بنى غزلون ، Benifazá بنى حسن ؛ وفى طركونة Benifallet : Tarragona بنى خالد ؛ وفى جزيرة ميورقة Benifaldó بنى خلدون ، Beniali بنى على ، Benisalem

بنى سالم أو سلاَّم ، Beniamar بنى عمار أو بنى أحمر ؛ وفى جزيرة منورقة Benillant Menorca : بنى لمط ، وهى قبيلة بربرية وهم إخوة صنهاجة .

وهناك مجموعة من أسماء الأسر تنتهى بلاحقة جمع المذكر السالم (ين) ، رأينا بعضها فيما سبق مثل Alfamin أى الفهميين ، ومنها أيضا Zaidin (الزيديين) فى سرقسطة ، و Alfagarin (الحجَّارين) فى سرقسطة أيضا ، و Celemin (السليميين) فى قادس ، ولابد أن هؤلاء ينتمون إلى أسرة بنى السليم وكان منهم عديد من الوزراء ورجال الدولة فى قرطبة على عهد بنى أمية ، وإليهم تنسب «مدينة ابن السليم» على مقربة من قادس ، وهى التى تدعى الآن Grazalema ويلاحظ فى هذه الأسماء اختفاء ياء النسب تخفيفا للنطق ، وذلك أسوة بما حدث فى النسبة إلى بعض الأسماء فى المشرق ، مثل اليمانين والأشعرين .

القلاع والحصون :

لعلنا غير مبالغين إذا قلنا إننا لانكاد نجد قطرا فى أوربا حفل بالقلاع والحصون مثل قطرى شبه جزيرة إيبريا أى إسبانيا والبرتغال ، ومن اليسير تعليل هذه الظاهرة ، فقد كانت هذه الأرض مسرحا لصراع لم ينقطع بين المسلمين وجيرانهم من الإمارات والممالك المسيحية على مدى ثمانية قرون ، وقد اقتضى ذلك من الجانبين إقامة منظومات من القلاع على طول الحدود التى كانت دائما فى حركة لاتنقطع بحسب قوة كل طرف من أطراف الصراع أو ضعفه . وأعانت طبيعة البلاد وتضاريسها الجبلية الوعرة على إنشاء ذلك العدد الهائل من الحصون ، إذ كان ما يبنى منها فى موقع بالغ الارتفاع يتحول إلى قلعة منيعة يمكن أن تقاوم الحصار شهورا بل سنوات .

وقد برع مسلمو الأندلس فى بناء الحصون واختيار المواقع الملائمة لتشييدها على طول خطوطهم الدفاعية ، ولهذا فقد بقيت هذه المواقع حتى اليوم شاهدة بأسمائها على أصولها العربية . وتنوعت مفردات المعجم الدال عليها ما بين القلعة والحصن والقصبة والمدينة (بالتصغير) والبرج والسور والمحرس . بل إننا نجد لفظا كالقصر لايعنى مجرد المنزل الفخم الجدير بسكنى الأمراء وعلية القوم كما يتبادر إلى الذهن ، بل هو فى أغلب الأحوال أشبه

بقلعة حصينة ، فهو أقرب إلى العمارة الحربية منه إلى العمارة المدنية المعتادة .

ويعد لفظ «القلعة» أكثر الألفاظ شيوعا في هذا الضرب من ضروب العمارة وقد دخل إلى اللغة الإسبانية فى صورة Alcalá ، وهو شائع شيوعا مفرطا فى معظم محافظات إسبانيا : فى إشبيلية وجيان وتيروال وسرقسطة وكونكة والبسيط وقادس وقشتليون ووشقة ومجريط . وفى هذه المدينة الأخيرة (مدريد) يطلق هذا الاسم على أحد شوارعها الرئيسية لأنه كان يمتد من القصر الملكى - وكان على عهد المسلمين هو قصر الحاكم العربى وأكثر مواقع المدينة حصانة - إلى آخر أطراف المدينة . بل إننا نجد هذه القلاع قد تحولت إلى مدن عامرة مازالت تحمل اسمها العربى . نذكر منها على سبيل المثال Alcalá de Henares على بعد ثلاثين كيلومترا من مدريد ، وكانت على عهد المسلمين تدعى «قلعة عبد السلام» . كذلك نجد مواضع تحمل مشتقات من لفظ «القلعة» مثل «القليعة» Alcolea - بالتصغير - فى عديد من المحافظات : فى قرطبة والمرية ووادى الحجارة ولقنت ولاردة .

وقد نجد اللفظ فى صيغة التثنية Alcalatén فى قشتليون .

ويستخدم لفظ «القصر» Alcázar مرادفاً للقلعة فى عدد كبير من المدن : فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة وكونكة وشقوبية وأورنسى ، وجدير بالذكر أن المدينتين الأخيرتين لم تخضعا أبدا لحكم المسلمين ويستخدم اللفظ مصغرا فى صورة Alcocer فى لقنت ووادى الحجارة وبلنسية وبصيغة التثنية Alcazarén فى سلمنكة وبلد وليد ، وهما بلدان لم يخضعا لسلطان المسلمين . أما القصبة Alcazaba فنجده فى غرناطة ومالقة والمرية وبطليوس .

ويستخدم لفظ «قلعة» مضافا إلى اسم أو لفظ آخر ، كما رأينا فى اسمى قلعة أيوب Calatayud وقلعة رباح Calatrava ، وكذلك فى Calataraje قلعة الأعرج فى مالقة و Calaceite قلعة زيد فى تيروال ، و Calatorao قلعة التراب فى سرقسطة ، و Calatañazor قلعة النسور ، وهو الموقع الذى تزعم المدونات المسيحية أنه دارت فيه معركة هزم فيها المنصور بن أبى عامر ، ولو أن ذلك لم يثبت تاريخيا .

ويشيع لفظ «الحصن» ومشتقاته فى عدد آخر من المواضع نذكر منها Alisne,

Iznajar حصـــن آشـــر فى قـرطبـة ، جزيرة ميورقة ، واستعمل فى صيغته الدارجة

و Iznalloz حصـن اللـوز فى غـرناطـة ، بإمالة كسرة الدال Almudena مرادفا للفظ

و Iznatoraf حـصن التـراب فى جيـان . القصبة فى مجريط .

ويظهر أن أهل إشبيلية كانوا ينطقون لفظ الحصن بفتح الحاء ، يدل على ذلك بلدان تابعان لإشبيلية ، يدعى أولهما Aznalcázar حصن القصر ، والآخر Aznalfarache حصن الفرج .

ويرد الاسم مصغرا فى صورة الحُصَيْن Aljocén فـى قـادس وبطليـوس ، و Alocén فى وادى الحجارة ، والحصينة Alozaina فى مالقة . وفى المدينة الملكية نلتقى بحصن ينسب كما يبدو إلى «هارون» Aznarón . ومن مشتقات هذا اللفظ المحْصَن Almazán الذى يطلق على بلدة تابعة لسُرْية .

ومن الألفاظ الأخرى التى تتضمن معنى المناعة «المحرس» Almaraz أى الموضع الذى يعهد للقائمين عليه بحراسة الثغر ، وهو يطلق على عدة مواقع فى قصرش ، وبلد وليد ، وسمورة . والبلدان الأخيران لم يخضعا لسلطان المسلمين .

ومن الألفاظ المرادفة للقلعة المُدينَة Almudaina ، وهو تصغير غير قياسى للفظ المدينة ، وقد استخدم فى لقنت وفى

وقد يكون الحصن منسوبا إلى بانيه كما نرى فى لفظ الـ Aljaferia الجعفرية فى سرقسطة ، وهو القصر الحصين المنسوب لأبى جعفر المقتدر بن هود أحد ملوك الطوائف من بنى هود الجذاميين فى القرن الخامس الهجرى ، وهو لايزال محتفظا بكثير من معالم عمارته الرائعة . وأحيانا يكتفى بنسبة الحصن إلى الأسرة أو القبيلة التى ينتمى إليها بناته مثل حصن « Canena » فى جيَّان ، وهو اسم قبيلة كنانة .

وقد يكون الاسم وصفا لهيئته مثل لفظ «المُدَوَّر» الذى أطلق على العديد من الحصون فى مناطق مختلفة ، وإن اختلف هجاء اللفظ باختلاف لهجات المناطق ، فهو فى قرطبة وكونكة والمدينة الملكية Almodóvar ، وفى وشقة Almudévar ، أو يكون فى الاسم إيحاء بالتفاؤل مثل «المُظفَّر» ، وهو مانراه فى الحصن المسمى Almudáfar فى وشقة ، و Almudéfar فى طركونة .

ويرتبط بمهام الدفاع بناء الأبراج ، وكانت تبنى فى مواقع متقدمة من الحدود ، ووظيفتها المراقبة وإنذار الخطوط الخلفية بأى بادرة لهجوم العدو . ولاتكاد تخلو منطقة فى إسبانيا من برج يحتفظ باسمه العربى أو مترجم إلى الإسبانية فى صيغة torre . ومن أجمل نماذج هذه الأبراج العربية التى مازالت محتفظة بعمارتها القديمة «برج الذهب» المطل على الوادى الكبير فى إشبيلية ، وقد أنشأه عامل المدينة إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) ، وهو يدعى الآن La Torre del Oro ترجمة عن اسمه العربى .

واحتفظت بعض المواضع باسم «برج» العربى ، منها Borge فى مالقة ، و Burch فى لاردة ، و Alborge فى سرقسطة ، وفى صيغة التصغير «البريجة» نجد Alboreya فى بلنسية و Alborayet فى ميورقة و Alborache فى بلنسية و Alborax فى البسيط . ونجد اللفظ فى صيغة الجمع مُعَرفاً : Alborox فى طليطلة . وقد يأتى لفظ البرج مضافا كما نرى فى Borjabad (برج عباد) فى سُرِيّة ، و Bujalaró (برج هارون) فى وادى الحجارة ، و Bujaraloz (برج العروس) فى سرقسطة ، و Bujalance (برج الحنش) فى قرطبة ، و Bujarrabal (برج الريض) فى وادى الحجارة ، و Bujasot (برج السد ، والسُّد بضم السين مثل السَّد بفتحها أى خزان المياه) . وكانت الأبراج التى تبنى خارج أسوار المدينة تسمى «البَرّانية» Torres Albarranas ، وقد شاعت هذه التسمية خاصة فى غرب الأندلس ومن أمثلتها ما نجده فى قصرش وبطليوس .

وكانت الأبراج أو القلاع التى تبنى على الخطوط الدفاعية المتقدمة تدعى «الطلائع» Atalayas ، ولاتكاد تخلو محافظة فى إسبانيا من مواضع تحمل هذا الاسم . ويصور الطابع الحربى لهذه المنشآت أن بعضها سمى «العسكر» مثل البلدة التى لاتزال تحمل هذا الاسم Alasquer فى بلنسية ، وقد انتقلت إحدى مشتقات هذا الاسم إلى إسبانيا المسيحية ، إذ نجد فى محافظة ليون بلدة تدعى Almázcara (المعسكرة) . والطريف أن الجغرافى الإدريسى يذكر أن هذا الاسم نفسه يطلق على بلدة فى المغرب الأوسط بين تنس

وتلمسان ، وهى قائمة حتى الآن باسمها محرفا إلى «مسكرة» .

وكان لكثير من هذه المنشآت طابع خاص هو مزيج من الصبغتين العسكرية والدينية ، إذ كان يقيم فيها عدد من المتطوعين الزهـــاد أو المتصوفة برسم الجهاد ، وكانت تدعى الروابط (جمع رابطة) . وفى المصادر الأندلسية كثير من أخبار هذه الروابط وأخبار المجاهدين فيها وماكانوا يضطلعون به من حسن البلاء فى الدفاع عن الثغور الإسلامية ومعاونة الجيوش النظامية ، وكانت حياة هؤلاء مزيجا من التعبد وعمارة الأرض المحيطة بحصونهم والمساهمة الفعالة فى المعارك . وكانت مجريط (مدريد) من أهم تلك المراكز الدفاعية التى يتردد عليها المتطوعون المحتسبون من سائر أنحاء الأندلس بل ومن المغرب العربى أيضا ، وقد أشرنا فى كتابنا عن «مدريد العربية» إلى اثنين من فضلاء المغاربة وفدا عليها خلال القرن الرابع الهجرى برسم الرباط هما جساس الزاهد السجلماسى (من سجلماسة فى أقصى جنوب المغرب) وأبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسى الذى توفى بعد ذلك فى بلدة فاس سنة ٣٥٧ (٩٦٧) وما زال ضريحه فى «باب الجديد» بفاس من المزارات المشهورة(٢٤) .

وانتشرت تلك الروابط فى كل أنحاء إسبانيا وعرفت باسمها العربى فى صور متعددة : Rábida فى ولبة وسلمنكة ، Rávita فى غرناطة وجيان ومالقة ، Rápita فى لاردة وطركونة . وقد كان لفظ الرباط ومشتقاته والأعلام الجغرافية المرتبطة به موضوعا أفرده بالدراسة فى كتاب كامل المستشرق الإسبانى خايمى أوليفر أسين(٢٥) .

الجبال والمرتفعات والكهوف :

لم يترك المسلمون موضعا فيما عمروه من شبه الجزيرة إلا مهروه بتوقيعهم متمثلا فى اسم عربى لايزال علما عليه حتى اليوم . حتى المرتفعات والمواضع الجبلية الوعرة حمل كثير منها تلك الأسماء . ونذكر فيما يلى أمثلة عليها :

من الطبيعى أن تكثر هذه الأسماء فى المناطق الجنوبية والشرقية من شبه الجزيرة حيث كان للمسلمين وجود أطول أمدا ، ومع ذلك فلم تخل المناطق الواقعة فى أقصى الشمال من تلك الأسماء العربية ، بل نراها حتى فى مواضع لم يقدر فيها للمسلمين وجود فعلى. وقد رأينا

من قبل كيف أطلق المسلمون اسم «جبل الثلج» على سلسلة الجبال الممتدة إلى جنوبى غرناطة بينها وبين المرية ، وهو الاسم الذى ترجم إلى الإسبانية فى صورة Sierra Nevada . وأعلى قمة فى هذه السلسلة هو الذى يدعى «مولاى الحسن» (Mulacén) وهو اسم مركب مختصر من «مولاى أبى الحسن» ، وأبو الحسن هى كنية أحد سلاطين غرناطة من بنى الأحمر فى آخر عهدها الإسلامى ، وهو على بن سعد الملقب بالغالب بالله . ويبلغ ارتفاع هذا الجبل ٣٤٨١ متراً ، وهو أعلى قمة فى جبال شبه الجزيرة كلها .

وهناك العديد من الجبال يتألف كل منها من لفظ جبل منسوباً أو مضافاً إلى لفظ آخر ، منها جبل طارق Gibraltar ، وجبل العيون Gibraleón فى ولبة ، وجبل فاروق (Gibralfaro) فى مالقة وجبل الكحل (Jabalcol) الممتد بين غرناطة وبسطة (Baza) ، وجبل كنتُهْ Jabalquinto فى جيان (وهو اسم مُهَجَّن من لفظ جبل العربى ولفظ Quinto اللاتينى الأصل ويعنى الخامس) ، وجبل عمرو Jabalambre فى تيروال وجبلىّ بياء النسبة Jabali . وفى مالقة عدد من سلاسل الجبال تحمل إحداها اسم «الحامة Alhama » ، وأخرى اسم عبد العزيز Abdalajis ، وثالثة ممتدة بين مالقة وغرناطة تدعى Almijara ومن الواضح من بنية الاسم أنه عربى ولو أننا لم نهتد إلى أصله . وفى المرية جبل يدعى ميمون Maimón ، وآخر يدعى Almagro وهو مأخوذ من اللفظ العربى المغرة الذى يعنى الطين الأحمر ، إشارة إلى لونه . وإلى غربى إشبيلية سلسلة تمتد منها إلى ولبة تدعى الشرف Aljarafe ، ويصفها ابن عبد المنعم الحميرى بأنها على مسافة أربعين ميلا كلها فى ظل شجر الزيتون(٢٦) . وفى قادس عدة سلاسل منها جبال جزولة (قبيلة بربرية) Los Gazules وطاحونة Tahona والمنارة Almenara ومدينة ابن السليم Grazalema . وفى مرسية جبل عربى Arabi وجبل طيبية Taibilla وسلسلة جبال Mazarrón ويلوح أنه اسم عربى وإن لم نتحقق من أصله . وبين البسيط وبلنسية جبل يدعى المنصف Almansa (وهو يعنى على حد قول ياقوت وسط الطريق وبه سمى أحد المواضع فى الجزيرة العربية(٢٧)) وباسم هذا

الجبل دعيت إحدى قرى البسيط . وفى جنوبى المدينة الملكية تمتد سلسلتا جبال المعدن Almadén (وسميت بذلك لما فيها من مناجم) والكدية Alcudia أى الربوة . وفى تيروال تقوم جبال «بنى رزين» وتقع على سفوحها المدينة التى تحمل نفس الاسم Albarracin وكانت عاصمة مملكة صغيرة من ممالك الطوائف تدعى سهلة بنى رزين وهى منسوبة إلى أسرة بربرية الأصل من قبيلة هوارة . وفى أقصى الشمال تنحدر عدة سلاسل من جبال البرتات (البيرينيه) منها جبال القاضى Sierra del Cadi مابين لاردة وجرندة . وفى محافظة قصراش تقوم سلسلة جبال وادى لب Guadalupe التى يتسنمها جبل شاهق الارتفاع (١٥٥٨ مترا) يدعى «رأس العربى Cabeza del Moro» . ولم يكن أصل هذه السلسلة معروفا حتى كشف لى نص قمت بنشره للمؤرخ القرطبى ابن حيان أن هذه الجبال منسوبة فى الحقيقة لأحد الثوار على إمارة بنى أمية فى سنة ٢٦٢ (٨٧٦) ويدعى على بن لب(٢٨) . وبقرب مدينة آبلة فى الهضبة الوسطى – وآبلة مدينة لم تخضع للمسلمين إلا على نحو عابر – جبل شاهق يدعى المنصور Almanzor . ولاشك فى أن السبب فى تسمية هذا الجبل باسم المنصور بن أبى عامر أكثر حكام المسلمين حملات على إسبانيا المسيحية هو ماعلق بأذهان المنطقة من ذكريات الغزوة الهائلة التى دمر فيها المنصور مدينة آبلة فى سنة ٣٨٤ (٩٩٤)(٢٩) .

ويكثر فى جغرافية إسبانيا استخدام لفظ الكدية Alcudia فى صيغته العربية وهو يعنى الأرض الغليظة المرتفعة ، فهناك أكثر من عشرة مواضع تحمل هذا الاسم وكثير منها يطلق على مدن واقعة على مرتفعات عالية .

وكثير من أسماء الجبال العربية هو فى الأصل وصف لهيئة هذه المعالم أو لونها أو سماتها المميزة ، مثل الخابية Alfabia وهى سلسلة جبال تقع شمالى مدينة بلمة عاصمة جزيرة ميورقة Palma de Mallorca وهى تخترق الجزيرة من الشمال الغربى إلى الجنوب الغربى . والخابية هى الجرة الضخمة ، فلعلهم شبهوا بها تلك الجبال . والفخار Alfacar اسم جبال وإقليم وقرية تقع إلى شرقى مدينة غرناطة ، ويرجع أصل التسمية إلى تميزها بنوع من الطفل تصنع منه الأوانى الفخارية . وقريبا من تيروال يقوم جبل يدعى الحمراء Alfambra وذلك لأنه من مادة طفلية حمراء .

ومدينة مجريط (مدريد) تقع على السفح الجنوبى لسلسلة الجبال المعروفة باسم وادى الرمل Sierra de Guadarrama ، وكان هذا الاسم يطلق أيضا على نهير متفرع من نهر تاجه ، وكان هناك من يخلط بينه وبين النهر الصغير الذى يخترق مجريط والذى يدعى الآن «نهر التفاح» Rio Manzanares ، وظل هذا الخلط حتى القرن السادس عشر ، ولكن الثابت أنه نهير آخر ينبع من سلسلة الجبال المذكورة . والتسمية قديمة إذ إننا نرى الاسم مذكورا بمناسبة بعض الأحداث الواقعة فى عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهرى آخر ولاة الأندلس فى عهد الخلافة الأموية فى المشرق ، فى نحو سنة ١٣٢ (٧٥٠).[٣٠] وقد كان الاسم فى لغة أهل الأندلس الدارجة بفتح الميم ، وهو مابقى فى النطق الإسبانى الحالى بعد حذف اللام الأخيرة .

وهناك عدد من الألفاظ التى تتعلق دلالتها بالجبال بقيت أعلاما على عدد من المواضع مثل الغار Algar وهو شائع فى أنحاء كثيرة : فى قادس ولقنت ووادى الحجارة وميورقة وبلنسية . ونجد اللفظ مؤنثا (Algara) فى أبيط Oviedo فى أقصى الشمال .

ويوجد اللفظ فى صيغة «الغورة» Algora فى وادى الحجارة ، وفى صيغة التصغير «الغُوَيرْ» Alguaire فى لاردة .

واستخدم لفظ «العِقاب» بمعنى التلال أو المرتفعات ، وهو جمع عَقَبَة . ولكنه لم يدخل إلى اللغة الإسبانية إلا مترجما فى صورة Navas ، وأشهر المواضع حاملة هذا الاسم Las Navas de Tolosa الذى دارت فيه المعركة الهائلة «العقاب» سنة ٦٠٩ (١٢١٢) والذى انهزمت فيه جيوش الخليفة الموحدى محمد الناصر أمام ائتلاف مسيحى ، وأدت هذه الهزيمة إلى سقوط معظم الحواضر الأندلسية .

الأنهار والعيون والآبار :

الذى يطالع المصادر العربية التى تصف الأندلس يتصور أن هذه البلاد كانت جنة الله فى أرضه ، إذ يكثر فى هذه الأوصاف الحديث عن السهول الخضراء والمزارع الخصيبة والحدائق الغناء ، ومايتردد فى أشعار الأندلسيين من التمدح بما تميزت به بلادهم من طبيعة ساحرة ، مثلما نجده فى قول ابن خفاجة الشُّقرى :

يا أهل أندلس لله دركم

ماء وظل وأشجار وأنهار

ما جنـــة الخلد إلا فى بـلادكم

وهـــــذه كنت لو خُيرت أختار

لا تتقوا بعدها أن تدخلوا سقراً

فليس تدخل بعد الجنة النار(٣١)

غير أن الحقيقة الجغرافية تسجل غير ذلك ، فشبه جزيرة إيبريا إذا قورنت بغيرها من البلاد الأوربية هى أكثر أقطار القارة جفافا وأقلها مياها وأحفلها بالصحارى القاحلة والأراضى المجدبة . ومع ذلك فإن أبيات ابن خفاجة وغيره من واصفى الأندلس لم تصدر عن فراغ ، بل كانت تصويرا صادقا معبرا عن حقيقة حضارية ، وهى أن هذه الطبيعة التى كانت مشاهدها تبهر الأبصار ، ومجاليها تفعم الأنوف بطيب نفحاتها إنما هى ثمرة لجهد بشرى كبير قام به الأندلسيون فى تعهد أرضها وحسن استخدام مواردها المائية بأقصى قدرة يمكن أن تتفتق عنها عبقرية الإنسان .

وقد وهب الله شبه الجزيرة خمسة أنهار كبيرة واحد منها يصب فى البحر المتوسط وهو نهر إبُره وأربعة فى المحيط الأطلسى هى دويرُه وتاجُه ووادى آنة والوادى الكبير . غير أن هذه الأنهار قليلة المياه بسبب قلة المطر وتبخر نسبة كبيرة منها خلال فصل الصيف الطويل . ولهذا فيعتمد جزء كبير من شبة الجزيرة على المطر فى الزراعة .

وكان المسلمون خلال القرون الأربعة الأولى من تاريخ الأندلس يملكون معظم أحواض الأنهار الخمسة ، ومابين أواخر القرن الخامس الهجرى وأوائل السادس فقدوا ماكانوا يملكونه من أحواض الأنهار الثلاثة الأولى : إبرة ودويره وتاجه وحتى منتصف القرن السابع فقدوا أيضا ماكان لهم فى حوضى النهرين الأخيرين . ويدلنا هذا على أن نصيب المسلمين من مياه الأنهار الكبرى كان قليلا ، غير أنهم عرفوا كيف يعتصرون من هذه المياه كل ماتحتوى عليه من طاقة ، كذلك ألجأتهم الحاجة إلى البحث عن موارد مائية فى باطن الأرض ، فكانت لديهم قدرة هائلة على استنباط المياه الجوفية والانتفاع منها إلى أقصى حد ، وهكذا استطاعوا أن يحولوا مالديهم من أرض قليلة العطاء بطبيعتها إلى حقول عامرة ورياض تتفجر بالخير ، وتموج بالزروع والغراسات والثمار .

ولعل أوضح دليل على ذلك أن كثيرا من الألفاظ المتعلقة بالمياه وبطرق استنباطها

واستخدامها من رى وشق قنوات وإنشاء سدود ومستودعات - كل ذلك مما أصبح من ذخيرة اللغة الإسبانية إنما هو من أصول عربية . وبقى عدد كبير من هذه الألفاظ يطلق على مواضع كثيرة فى البلاد .

وكما فعل العرب بالنسبة لأسماء المدن الكبيرة المنشأة من قبل ، فإنهم تركوا الأنهار الثلاثة الكبرى الأولى بأسمائها الإيبيرية أو الرومانية القديمة : الإبره والدويره والتاجه . أما النهران الباقيان فقد لحق اسميهما بعض التغيير ، فنهر آنه (الذى كان اسمه اللاتينى Ana Fluvium) احتفظ بالجزء الثانى من اسمه ولكن الجزء الأول استبدل به لفظ «وادى» ، والوادى فى اصطلاح الأندلسيين يطلق فى الغالب على النهر ، فأصبح وادى آنه ، وانتقل بهذه الصيغة المزدوجة إلى اللغة الإسبانية فى صورة Guadiana . وأما النهر الخامس الذى يجرى فى أقصى الجنوب فقد كان اسمه Baetis وعرفه العرب باسم بيطى ، ولكنهم اتخذوا بعد ذلك له اسما عربيا خالصا هو «الوادى الكبير» وورث الإسبان عنهم هذا الاسم إذ يدعى الآن Guadalquivir .

«الوادى» فى جغرافية إسبانيا :

رأينا لفظ الوادى ماثلا فى اسمى اثنين من كبار أنهار إسبانيا مما بقى من التراث الأندلسى . على أن هذا اللفظ قد دخل أيضا فى عدد هائل من المعالم الجغرافية الإسبانية كثير منها أنهار صغرى أو نهيرات وإن كان بعضها مدنا وقرى تقع على ضفاف تلك المجارى المائية . وقد اهتم بتتبع لفظ «الوادى» على الجغرافية الإسبانية العالم البحاثة إلياس تيريس فى دراسة قيمة(٣٢) . فأحصى من هذه الأسماء أربعمائة وأربعة وستين اسما نصفها يبدأ باسم «وادى» العربى . ولايتسع المجال هنا للحديث عن هذه الأسماء ودلالاتها ، وإنما يكفى أن نعرض بعضها مضافا إلى ألفاظ ذات دلالات مختلفة بعضها نسبة إلى اسم علم أو طائفة أو مهنة ، وبعضها صفات لما يتميز به الموضع من لون بعينه أو بما يكثر حوله من نبات أو حيوان . فمن هذه الأسماء :

- وادى سليط Guadacelete واسمه الحالى Guazalete وهو يقع على مقربة من طليطلة إلى جنوبها الغربى ، علما على نهير متفرع من نهر تاجه El Tajo وعلى ضفاف هذا النهير ، وقد كان مسرحا لأحداث حربية

مذكورة فى المصادر الأندلسية ، منها معركة وقعت فى منتصف القرن الثانى الهجرى بين العرب بقيادة الوالى عبد الملك بن قطن والبربر ، وفى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن وبين أهل طليطلة الثائرين على سلطة الإمارة فى سنة ٢٤٠/٨٥٤ ويبدو أن لفظ سليط الذى ينسب إليه هذا الوادى اسم علم(٣٣) . وللعالم الشاعر الأندلسى المشهور عباس بن فرناس – صاحب محاولة الطيران المعروفة – قصيدة فى تهنئة الأمير محمد بانتصاره فى هذه المعركة وفيها يصف الموقع بأنه وادٍ يحف به جبلان عاليان :

بكى جبلا وادى سليطٍ فأعولا
على النفر العُبْدانِ والعصبة الغلف(٣٤)

– وادى لب Guadalupe ، وهو يطلق على عدة مواضع ، فى قصراش وبطليوس وطليطلة والمرية ، ولكن أشهر هذه المواضع هو الأول الذى تحمله بلدة على مقربة من لقرشان Logrosán فى محافظة قصراش Cáceres ، وفيه مشهد كبير يتعبد له كثير من أهل إسبانيا وينسب إلى من يسمونها «عذراء وادى لب» وقد انتقل التعبد لها إلى أمريكا ، فأصبح أهل المكسيك يعدونها راعية لبلادهم . وقد كان العلماء الذين درسوا هذا الاسم مثل البرتغالى دافيد لوبس والألمانى تسايبولد والإسبانى أسين بلاثيوس يعتقدون أن لفظ لب الذى أضيف إلى الوادى يعنى «الذئب الإسبانى» lobo (من اللاتينية lupus) ، وقد كان الأندلسيون المسلمون يعرفون هذا الحيوان باسمه الإسبانى «لبّ» وتسمى به كثير منهم ، غير أن نص «المقتبس» لابن حيان الذى قمنا بتحقيقه دلنا على أن هذا الموضع يدين باسمه لشخصية أحد الثوار ويدعى على بن لُبّ كان فى غرب الأندلس حليفاً لابن مروان الجليقى زعيم مولدى الغرب فى أيام الأمير محمد ومنشئ مدينة بطليوس ، وذلك خلال السنوات المنحصرة بين ٢٦١ و ٢٧٦ (٨٧٥ – ٨٩٠) .

– وادى سلمة Guatizalema ، اسم نهر صغير ينبع فى إقليم وشقة Huesca ويتجه جنوبا حتى يصب فى نهر Alcanadre (وهو نهر آخر يحمل اسما عربيا : القناطر) من فروع نهر إبره ، وهو منسوب إلى أسرة كانت تحكم مدينة وشقة وهم بنو سلمة الذين ينتمون

إلى قبيلة تجيب العربية ، وكانوا قد نزلوا هذه المنطقة من أقصى شمال إسبانيا فى السنوات الأولى للفتح العربى(٣٦) .

- وادى الكلبيين Guadacabrillas ، وقد اختصر الاسم مؤخرا إلى Cabrilla ، وهو نهير يصب فى الوادى الكبير على مقربة من بلدة تحمل إيضا اسما عربيا هى المدوَّر Almodóvar del Rio ، وبجوار هذا النهر دارت معركة ضارية انتصر فيها عبدالرحمن الداخل «صقر قريش» على الثوار عليه من اليمنية ، وإلى هذه القبائل القحطانية ينتمى الكلبيون الذين حمل ذلك الوادى اسمهم ، فبنو كلب بن وبرة هم أحد بطون قبيلة قضاعة . وإليهم تنتسب أسرة بنى أبى عبدة الذين منحوا دولة بنى أمية عددا من أكفأ الوزراء والقواد ، ومنهم كان بنو جهور أصحاب قرطبة فى عهد ملوك الطوائف(٣٧) .

- وادى البربر Guadalbarbo ، نهير ينبع شمالى قرطبة ثم يلتقى بنهر كزنة Rio Cuzna ، وهناك نهير آخر بنفس الاسم يصب فى الوادى الكبير بالقرب من قرية تدعى القليعة Alcolea ، ويبدو أنه هو الموضع الذى ذكره ابن حيان فى معرض حديثه فى أخبار سنة ٣١٧ (٩٣٠) من استجلاب الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر لفصائل من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، وقد جلب هؤلاء معهم جرائد من عتاق الخيل قاموا باستنتاجها فى وادى البربر المذكور(٣٨) .

- وادى النساء Guadalmesi ، نهير ينبع من جبال الجزيرة الخضراء فى محافظة قادس ويخترق إقليم طريف ويصب فى مضيق جبل طارق . ولم تفدنا المصادر بسبب هذه التسمية إلا أنها تسجل مواضع بالاسم نفسه فى المشرق (خراسان) وفى الشمال الإفريقى (الجزائر)(٣٩) .

- وادى القزازين Guadalcacin أو Guadalcazacin نهر يجرى فى إقليم أركش Arcos de la Frontera ، ويصب فى نهر وادى لكه Guadalete ، وهو يدعى أيضا باسم آخر من أصل عربى : مرج الزيت Majaceite ، ويبدو أن نسبته إلى القزازين ترجع إلى كثرة من كانوا يزاولون فى حوضه تربية دودة القز أى الحرير(٤٠) .

- وادى السباع Guadacebas ، نهير يجرى فى محافظة جيان ، ويصب فى الوادى

الكبير على مقربة من حصن التراب -Izna toraf . وقد جرى الأندلسيون على أن يطلقوا لفظ السباع على الذئاب(٤١) .

- وادى الرمك Guadarranque ، نهير يجرى فى محافظة قادس ومنبعه فى جبال شمانة Jimena ويصب فى خليج الجزيرة الخضراء ، ويسميه الحميرى «وادى البحر» ، أما اسمه الأول فهو منسوب إلى الرمك ، جمع رمكة (بفتح الميم) ومعناها الفرس ، غير أن الأندلسيين فى لغتهم الدارجة كانوا يسكنون الميم فى صيغة الجمع ، ويبدو أن هذا الموضع كان صالحا لاستنتاج الأفراس الفارهة(٤٢) .

- وادى الرمان Guadarromán ، نهير ينبع على مقربة من مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر خارج قرطبة ، ويصب فى الوادى الكبير . ويذكر ابن حيان أنه كانت فى هذا الموضع «منية» (يعنى قصرا ريفيا تحفه الحدائق) بناها الفتى دُرَّى وأهداها للحكم المستنصر . ونحن نجد الاسم مختصرا فى صيغة Guarromán علماً على بلدة فى منطقة لاكارولينا فى محافظة جيان . وواضح أن فى الاسمين إشارة إلى شجر الرمان الذى عنى به الأندلسيون(٤٣) . وبهذه المناسبة يذكر أن عبد الرحمن الداخل حينما بنى منية الرصافة فى شمالى قرطبة جلب طرائف من الرصافة المنسوبة إلى جده هشام فى أرض الجزيرة بالمشرق ، ومن هذه الطرائف رمان فاخر لذيذ الطعم ، وكان من جلسائه رجل من أهل الأردن هو سفر بن عبيد الكلاعى ، فأخذ من هذا الرمان شيئا عالج غرسه وتنقيله فى موضع سكناه بقرية من قرى مالقه ، حتى أثمر وأينع وأغرب فى الجودة ، ثم انتشر هذا النوع ، واستوسع الناس فى غراسه ، ولزمته النسبة إلى مستنبطه فأصبح يدعى «الرمان السَّفَرى» ومازال حتى الآن يدعى فى الإسبانية بنفس اسمه العربى فى صيغة Zafari ، كما ينسب إلى سفر هذا نوع من التين المالقى الذى يضرب بجودته المثل(٤٤) .

- وادى المنصور Guadalmanzor أو المنصورة Almanzora ، نهر يجرى فى محافظة المرية وتقع على ضفته بلدتا برشانة Purchena وبيرة Vera على مقربة من مصبه فى البحر المتوسط . واسما المنصور والمنصورة شائعان فى جغرافية الأندلس علمين على عديد من المواضع ، وإطلاقه ضرب من التفاؤل بالنصر(٤٥) .

- الـوادى الأبـيـض Guadalaviar نهـر ينبع من جـــبـــال بنى رزين Sierra de Albarracin فى تيـروال ويصب فى البـحـر المتـوسط ، وعلى مصبـه تقع مدينة بلنسـيـة ، ولهـذا النهـر ثلاثة أسـمـاء تطلق على أجـزاء متعاقبة من مجراه ، الأول باسمه العربى الأصل ، والثـانى باسم Rio Blanco وهـو لـيـس إلا ترجـمـة للاسم العـربى ، والثـالث باسم توريا Turia فى الجزء الأخير الذى ينتهى بالمصب . وهناك من اللغـــويين من رأى أن أصل الاسم العـــــربى ليـس «الأبـيـض» وإنما هو «وادى الأبيار» على أن أبيار هى الجمع الذى استخدم فى لغة الأندلسيين الدارجة للفظ «بئر - بير) ، وذلك تعليـلا لإنتـهـاء الاسم بحرف الراء التى يستبعـدون أن يتـحول إليـهـا حرف الضـاد . وهـو أمر محتمل على كل حال(٤٦) .

- الوادى الأحمر Guadalimar نهر ينبع من إقليم الكرس Alcaraz وهى مدينة عربية الاسم فى محافظة البسيط ويمر فى محافظة جيان ويصب فى الوادى الكبير ، ويتـردد ذكر هذا النهر فى المصادر الأندلسـيـة بمناسبة بعض الأحداث التى وقعت على ضفافه ، ومن أهمها ثورة أبى الأسـود بن يوسف بن عـبـد الرحـمن الفهرى على عبد الرحمن الداخل والنصر الذى أحرزه جيش الأمير الأموى عليه فى «مخاضة الفتح» على مقربة من قسطلونة Cazlona على ضفاف الوادى المذكور ، وكان قائد جيش الأمير هو سليمان بن عبد الرحمن الداخل . وقد سجل الشاعـر أبو المخشى الإلبيـرى (وهو من سلالة الشاعـر الجاهلى عدى بن زيد العبادى) ذلك النصر فى قصيدة يقول فيها(٤٧) :

وغـــدا سليمان السماح عليهم
كالليث لا يلـوى على متعـذر
وهو الذى ورث الندى أهل الندى
ومحا مغبـة يـوم وادى الأحمر

أمـا تسـمـيـتـه هـذا الوادى بالأحـمـر فـهى ترجـــــع إلى مـا يحـمله من طمى ضـــــارب إلى الحمرة(٤٨) .

* * *

وإذا كـانت الأسـمـاء العـربيـة التى تحـملهـا وديان إسبانيا وأنهارها على مارأينا من الكثرة فـإننا نرى مثل ذلك فى المعـجم المتـعلق بالميـاه من عيـون وقنوات وسدود ومسـتـودعـات ميـاه وكل مايتعلق بالرى والفلاحة . وكثير من هذه الألفاظ انتقل من دلالتـه المعـجمية إلى الدلالة على أسماء وأعلام جغرافية .

ومن أول هذه الألفاظ «العين» الذى تحمله مواضع كثيرة ، منها Ahin فى قشتليون ، وهى قرية تدين باسمها لعين ذات ماء غزير تروى به المنطقة كلها وتدير خمسة أرحاء لطحن القمح[٤٩] . وهناك قرية فى طليطلة تحمل هذا الاسم فى صيغة Ain على مقربة من ضفة نهر تاجه ، وقرية أخرى فى «البسيط» باسم Ayna[٥٠] وقد يأتى اسم العين مضافا كما نرى فى «عين الدمع» فى غرناطة ، ويقول عنه الشقندى فى رسالته فى فضل الأندلس إنه «من عجيب مواضعها ... وهو جبل فيه الرياضات والبساتين[٥١] ، وقد بقى اسمه حتى الآن فى صورة Ainadamar ، ومن الذكريات الحزينة المرتبطة به أنه هو الذى نفذ فيه حكم الإعدام على الشاعر الغرناطى المشهور فيديريكو غرسية لوركا . وقد يرد اسم العين لا بلفظها وإنما بصفة من صفاتها ، ففى مالقة قرية تدعى Cútar ، وفى غرناطة Alcútar وهو لفظ «الكوثر» تمدحا بعذوبة مائها . وقد يستخدم اللفظ فى صيغة الجمع ، كما نرى فى قرية بطليطلة تدعى «العيون» Aloyon ، وفى جبل من جبال ولبة يدعى «جبل العيون» Gibraleón .

ومن الألفاظ المتعلقة بالماء «الساقية» Acequia ، وهو يعنى القناة وبه تسمى قرية فى غرناطة و «القناة» Alcaná ، وبه تسمى قرية فى جزيرة ميورقة ، و Alcanar فى طركونة . وكذلك «البركة» Alberca ، وهو علم على العديد من المواضع : فى لقنت ومرسية وكونكة وآبلة وسلمنكة .

وكان الأندلسيون يستخدمون فى الرى «الناعورة» وهى التى تقابل مايعرف فى مصر بالساقية ، سميت بذلك لما تحدثه من صوت ، وقد دخل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صورة Anoria وبه تسمى قريتان فى المرية والبسيط ، وفى قرطبة Añora ، و Noria فى قرى عديدة بالمرية وغرناطة و Nora فى قصرش ولاردة وليون وأبيط ، و Ñora فى غرناطة ومرسية .

ومن هذه الألفاظ السانية ، ومعناه فى اللغة الدابة التى تحمل الماء ، ولكن الأندلسيين استخدموه بمعنى الناعورة، وقد أصبح علما جغرافيا على كثير من قرى إسبانيا فى صور متعددة : Sinia, Senia, Azaña, Aceña

وبرع الأندلسيون فى استنباط المياه من الآبار ، ومن هنا بقى لفظا «البير» و «الجب» فى كثير من الأعلام الجغرافية . نذكر منها Biar (وهو جمع بير فى الأندلسية الدارجة) فى لقنت ، و Viar فى بطليوس وإشبيلية ، و Albires فى ليون (وهو اللفظ العربى ، أضيفت له لاحقة الجمع فى الإسبانية) . ومن فروع نهر تاجة فى المنطقة التى توجد فيها مجريط فرع يدعى Ajalbir وأصله العربى «فجّ البير» .

أما لفظ «الجب» فقد اتخذ فى الإسبانية أكثر من صيغة منها Alcibi, Alchup, Aljube, Algibe وقد أصبحت هذه الصيغ أعلاما جغرافية على أكثر من عشرة مواضع فى مختلف محافظات إسبانيا .

وبنى الأندلسيون عددا كبيرا من السدود التى كان الهدف منها تخزين المياه ، وكان لفظ «السّدّ» ينطق لديهم بضم السين وبهذا الضبط انتقل إلى الإسبانية فى صيغة Azud ، وبه يدعى خزان يوجد الآن فى طركونة ، وكذلك فى صيغة Azut فى لقنت . وكانوا يطلقون على مستودعات الماء لفظ «الصهريج» وقد انتقل هذا اللفظ إلى الإسبانية فى صور متعددة ، من بينها Safareitg وبه تدعى قرية فى لاردة .

والأنبوب الذى يصرف به الماء الزائد على الحاجة كان يدعى «الميزاب» (وهو بالإسبانية Mizep) وهو علم على قرية مندثرة فى لقنت ، أو «البلاعة» (Albalá) وهو اسم قرية فى قصراش .

ومن أكثر منشآت المسلمين فى الأندلس القناطر . ومن هنا كثر استعمال لفظ القنطرة Alcántara علماً جغرافيا فى العديد من الأنحاء : فى قصراش وقادس وبلنسية ، وبصيغة التصغير العربية Alconétar ، وموضع يدعى «قنطرة محمود» فى قصراش ، وبصيغة التصغير الإسبانية Alcantarilla فى البسيط وكونكة ومالقة ومرسية وطليطلة ، وبصيغة الجمع : القناطر Alcanadre فى لوجرونيو .

والموضع المنخفض الذى يتخلف فيه الماء يدعى فى العربية «الغدير» ، وقد بقى هذا الاسم علما جغرافيا فى صيغة الجمع «الغُدُر» Algodor فى قرطبة وطليطلة وقصراش وبلفظ Algodre فى سمورة .

وتنتشر فى شبه الجزيرة عيون المياه المعدنية الساخنة ، وهى التى تدعى الحمّات (جمع حمّة

وحامّة) وقد عرف الأندلسيون كيف ينتفعون من هذه العيون فى الاستشفاء ، وانتقل لفظ «الحامة» Alhama إلى كثير من الأعلام الجغرافية ، فتسمت به مدن وقرى فى المرية وغرناطة ومرسية وسرقسطة وسرية والبسيط . وهناك عيون مائية فى مدينة بسطة Baza تدعى Alcribite وهو لفظ الكبريت العربى إشارة إلى المياه الكبريتية التى تنبعث من هذه العيون . وفى سرقسطة قرية تدعى Alfamén وهو تحريف للفظ «الحمّام» إشارة إلى عيونها الساخنة . وفى المرية قرية تدعى Alfaguara الفوّارة ، أى العين التى تفور بالماء .

ولفظ «الدّيْماس» يعنى الحمام والمكان المظلم وبه سمى سجن بناه الحجاج بن يوسف الثقفى . وقد أطلق هذا اللفظ فى الأندلس على صهاريج المياه التى تبنى على العيون الساخنة ، وقد أصبح هذا الاسم علما على عدد من المواضع فى صيغ مختلفة : Adamuz فى قرطبة ، و Ademuz فى بلنسية ، و Daimuz (منكرا) فى غرناطة ، و Daymús فى وشقة .

والألفاظ المتعلقة بالنشاط الزراعى وبأنواع الشجر والنبات قد اتخذت سبيلها أيضا إلى أن تصبح أعلاما جغرافية . ومن أكثرها شيوعا لفظ «المُنية» الذى يعنى البيت الريفى الذى تحيط به الحدائق . وهو لفظ أطلق على كثير من القرى والمدن فى مصر ، فقد أحصى ياقوت فى معجمه أحد عشر موضعا فى دلتا مصر وصعيدها بهذا الاسم ، من أشهرها منية ابن الخصيب ممدوح أبى نواس (وهى عاصمة المحافظة التى تدعى المنيا فى الصعيد) ومنية غمر التى تحرف اسمها إلى ميت غمر ، وكل القرى التى تبدأ فى مصر بلفظ ميت إنما تحرفت أسماؤها عن المنية . أما الأندلس فقد كانت ضواحى قرطبة على عهد بنى أمية تحفل بهذه المنى ، ومن أشهرها منية الرصافة التى أنشأها عبد الرحمن الداخل فى شمالى قرطبة ، وقد اندثرت بعد ذلك وإن كان اسمها باقيا حتى اليوم La Ruzafa ، ومنية الرصافة فى بلنسية التى أنشأها عبد الله بن عبد الرحمن الداخل المعروف بالبلنسى ، ومازال اسمها حتى اليوم علما على حى من أكبر أحياء المدينة ، وإليها ينسب شاعر مشهور من وصافى الطبيعة يدعى محمد بن غالب الرصافى . ولفظ «المنية» يطلق اليوم فى صورتيه Almunia, Almuña على عدد من القرى والمدن

الصغيرة فى بلنسية وسرقسطة ووشقة ، وكذلك فى أبيط Oviedo وبونتفيدرا Pontevedra فى أقصى شمال إسبانيا .

ومن هذه الألفاظ «القرية» التى انتقلت إلى إسبانيا فى صور متعددة : Alcaria فى قادس ومالقة وجزيرة ميورقة ، و Alqueria فى عدد كبير من قرى الجنوب والشرق وجزر البليار ، و Alcarria فى وادى الحجارة . وقد أشرنا من قبل إلى لفظ «الضيعة» الذى قدر له كذلك انتشار عظيم .

ومنها لفظ الغيضة أى المكان ذو الشجر الملتف ، وهو بصورة Algaida اسم لقرى فى قادس وجزر البليار ، وفى صيغة الجميع Algayad اسم لسلسلة جبال فى لقنت . وكان الأندلسيون يطلقون على البستان اسم الجنة ، ومن هنا نجد فى بلنسية التى كانت مشهورة برياضها وحدائقها قرية باسم الجنّات Alginet ومن أشهر معالم غرناطة جنة العريف El Generalife بجوار قصر الحمراء .

واشتهرت الأندلس بكرومها ومن هنا أصبح لفظ الدالية ومعناه شجرة العنب علما على أكثر من موضع فى صورة Adalia فى سمورة وبلد وليد . والطرفاء هو منبت شجر العضاه ، وبه سميت قرية فى طليطلة Atarfa ، والشَّعْرَاء هى الأجمة والعشب الكثيف الملتف ، وقد أطلق هذا الاسم فى صورة Jara على نحو عشرة قرى فى جنوبى شبه الجزيرة ووسطها وشرقيها . وكانت الأندلس ومازالت مشهورة بزيتونها ، ومن هنا سميت بعض القرى فى طليطلة وقصراش باسم Aceituno مذكرا ومؤنثا ، وكذلك شجر الخروب الذى بقى اسمه منكرا فى صورة Garrobo علما على قرى فى مالقة والمرية وإشبيلية ومرسية وبطليوس ، ومعرفا فى صورة Algarrobo فى مالقة . ومن المعروف أن العرب أدخلوا إلى شبه الجزيرة زراعة القطن ، وانعكس ذلك على اسم قرية فى قادس تدعى Algodonales أى مزارع القطن . وكذلك القنب الذى بقى اسمه علما على قرية فى سرية تدعى Alconaba .

وهناك مواضع تحمل أسماء ثمار أو أزهار عربية الأصول منها قرى فى تيروال وجيان وطليطلة تدعى Allozar أى شجر اللوز ، وقرية فى المرية تدعى Ambercoque أى البرقوق . ويستوقف النظر هنا أن حرف

التعريف العربى قد استبدلت فيه اللام بالميم ، وهذه لغة يمنية معروفة ، ويتفق ذلك مع مايسجله ابن حزم من أن النازلين بوادى بجّانة Pechina الذى تقع فيه المرية كانوا من بنى أسلم بن زيد وهم بطن من قبيلة حمير اليمنية(٥٣) . ومن أسماء الأزهار «الريحان» الذى سميت به قرية فى غرناطة هى Arrayán ، و «الدّفلى» وبه سميت قرية فى ميورقة Defla .

ومما يتعلق بالنشاط الزراعى أيضا لفظ «المدرس» أى المكان الذى يُدْرَس فيه القمح ، وهو علم على قرية بطليطلة تدعى Almadraz ، وكذلك لفظ الخرّاصين ومعناه الذين يخرصون (أى يقدرون) المحصول الزراعى بالنظر المجرد وهو اسم علم على قرية فى بلنسية فى صورة Alfarrasí . وكذلك لفظ Almásera, Almázara وهو من العربية المعصرة ، أى مكان عصر الزيت أو العنب ، وبهذين الاسمين توجد قريتان إحداهما فى بلنسية والأخرى فى محافظة نبرة Navarra فى أقصى الشمال . ويوجد اسم «معصر» منسوبا إلى بعض الأعلام مثل Mazarambroz : معصر عمروس فى طليطلة .

ومن الألفاظ المتصلة بالمهن والحرف والمنتهية بعلامة جمع المذكر السالم Alfajarin فى سرقسطة ، وهى تعنى «الحجّارين» و Albaicín ، وهو من أهم أحياء غرناطة وكان حى الطبقة العاملة فى المدينة ، وهو بالعربية حى البيازين أى باعة البزاة المستخدمة فى الصيد ، وكذلك الحى الذى مازال يحمل اسمه العربى Zacatín أى حى السقّاطين وهم باعة سقط المتاع ، أى الأثاث القديم والثياب المستعملة وما إلى ذلك . وكانت صناعة الفخار والخزف مما اشتهرت به كثير من المدن الأندلسية ، ومنها مجريط وطلبيرة وبعض قرى غرناطة ، ولهذا فقد وجدنا لفظ الفخار علما على اسم قرية غرناطية تدعى Alfacar ، واختصر اللفظ إلى Alfara, Alfar, ، فأصبح علمًا على عدد من المواضع فى بلنسية وطركونة وبرشلونة وجرندة Gerona . ومما يتصل بهذا العمل لفظ Adobas, Adobes وهما صيغتان انتقلتا من لفظ الطوب العربى ، ويطلقان على قريتين فى وادى الحجارة وتيروال .

ومن الألفاظ المرتبطة بالصناعة لفظ «القُرْق» وهو لاتينى الأصل (quercus) ومعناه شجر الفلين ، وكان الأندلسيون يستخدمون هذه المادة فى صناعة الأحذية فكانوا يسمون الخفاف «الأقراق» (جمع قرق) والمشتغلين بصناعتها (القراقين) . وهذا الشجر كثير فى إسبانيا وبه سميت قرى عديدة بصيغ مختلفة منها Alcornoque Alburquerque, (أبو القرق) وكلتاهما فى بطليوس .

ونذكر فى النهاية ثلاثة أعلام جغرافية مرتبطة بألوان أخرى من النشاط الحيوى ، أولها Almadén (المعدن) وبه يسمى أكثر من موضع : فى المدينة الملكية وكان موضعها على عهد المسلمين يدعى بفحص البلوط Valle de los Pedroches (لكثرة هذا الشجر فيه) وإلى جنوبى هذه البلدة توجد سلسلة الجبال التى تحمل الاسم نفسه Sierra de Almadén وسميت البلدة والجبال بذلك لغناها بالمعادن ، ولهذا فقد كثرت فيها المناجم واشتغل أهلها بالصناعات المعدنية ، وهناك بلدة تقع إلى الشمال الغربى من إشبيلية تدعى Almadén de la Plata أى معدن الفضة كانت معروفة بمناجمها التى يستخرج منها هذا المعدن النفيس . وفى أقصى الغرب وعلى مصب نهر التاجة فى المحيط الأطلسى تقع مدينة الأشبونة Lisboa عاصمة البرتغال وعلى ضفة النهر المقابلة كان يوجد حصن Almada وهو صيغة أخرى للفظ المعدن ، ويقول ابن عبد المنعم الحميرى إنه سمى بذلك «لأنه عند هيجان البحر يقذف بالذهب التبر هناك فإذا كان الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذى به إلى انقضاء الشتاء وهو من عجائب الأرض»(٥٤) .

والعلم الثانى La Malá وهو اسم قرية فى جنوبى غرناطة ، وأصله العربى الملأحة ، سميت بذلك لما كان فيها من معدن الملح الذى كان أهلها يقومون باستخلاصه . وإلى هذه القرية ينتمى المؤرخ أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى مؤلف « تاريخ علماء البيرة » (وإلبيرة كانت حاضرة الإقليم قبل أن يتحول عمرانها إلى غرناطة)(٥٥) .

والعلم الثالث هو Almadraba وهو اسم يطلق على عدة قرى ساحلية فى المرية ولقنت ومیورقة ، وأصله العربى «المضربة» ،

وهو مصطلح أندلسى يعنى نوعا من الشباك الخاصة التى تستخدم فى صيد حيتان التُّنّ (بالإسبانية atún)(٥٦) . ومازال صيد هذه الحيتان يجرى على نفس النهج الذى كان يصاد بها على عهد المسلمين .

دلالة الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية :

رأينا فى الصفحات السابقة نماذج من أسماء أنواع من المعالم الجغرافية التى مازالت تحمل هويتها العربية ، وهى ليست إلا عددا ضئيلا عرضناه من بين مئات بل آلاف من تلك الأسماء ، وكان هدفنا من عرضها هو التمثيل لا الحصر . وقد رأينا كيف انتشرت هذه الأسماء على جغرافية إسبانيا كلها سواء على معالمها الطبيعية من جبال وسهول ووديان وأنهار وعيون وكهوف ، أو على ماأبدعته يد الإنسان الأندلسى من مدن وقرى وقلاع وبروج وقنوات وسدود . والواقع أن هذه الأسماء ليست مجرد ألفاظ لغوية انتقلت من لغة إلى لغة ، وإنما هى مرآة لما تم على أرض شبه الجزيرة عبر عدة قرون من منجزات حضارية ، فهى كما رأينا تصور مدى الجهد الذى بذله الإنسان الأندلسى على تلك الرقعة المقتطعة من القارة الأوربية فى سائر مجالات الحياة من زراعة وصناعة وحرف ونشاط بحرى عرف فيه كيف يستثمر موارد البلاد على خير صورة ممكنة ، وأورث الأندلسيون إسبان اليوم كل ماتفتقت عنه عبقريتهم من خبرات فكان ذلك منطلقا لهذا الشعب إلى استكشاف العالم الأمريكى الجديد الذى أصبح امتدادا حضاريا وثقافيا لشعبى شبه الجزيرة : إسبانيا والبرتغال .

لقد قدم الفاتحون العرب إلى شبه الجزيرة وهى أرض واسعة مترامية الأطراف ، ولكنها ذات موارد طبيعية فقيرة ، أكثرها جبال وأراضٍ صحراوية قاحلة ، ولكن شعبها كان وريثا لحضارتين متقدمتين : الفينيقية والرومانية ، غير أن القوط ورثة الحضارة الأخيرة كانوا شعبا أقرب إلى البداوة والخشونة ، فلم يضيفوا شيئا إلى ماورثوه ، بل تخلفت البلاد فى ظلهم ، وقل عدد السكان بصورة ملحوظة ، وكانوا بطبيعتهم مترفعين على أهل البلاد ، فعاشوا فى عزلة عنه ، وقنعوا حتى بعد ما نالوا شيئا من الرقى والتحضر فى أواخر عهدهم بالحياة على التراث الرومانى فى المدن الكبرى معرضين عن استثمار المساحات

الواسعة من الريف أو عاجزين عن استثمارها بحكم مستواهم الحضارى المحدود . ثم قدم الفاتحون العرب مسلحين بقيم دينية وفكرية جديدة ، بعيدة عن العنصرية والتعبد بالتفوق العرقى الذى كان من سمات الحضارة الرومانية ثم القوطية من قبل . بل كانوا بفضل هدى الإسلام حملة رسالة تدعو إلى التسامح وحسن التعامل مع الشعوب التى وفدوا عليها ، فلم يكرهوا أحدا على اعتناق دينهم ولا على اصطناع لغتهم ، وكان سلوكهم مع أهل البلاد كسلوكهم مع كل الأمصار التى فتحوها من قبل قائما على المساواة وحسن الجوار ، ولهذا فإنهم سرعان ما امتزجوا بأهل البلاد وشاطروهم حياتهم ، وآتت هذه السياسة ثمرتها ، فإذا بأهل البلاد يقبلون على الإسلام طواعية ويتقبلون تلك الثقافة الجديدة التى أتى بها الفاتحون بكل ما احتوته من قيم . ومنذ اللحظات الأولى يتحول هؤلاء المحاربون الأشداء الذين قدموا تحت راية الإسلام إلى مزارعين وصناع وأهل حرف منساحين فى الريف والقرى مطبقين ما حملوه معهم من الشرق من خبرة فى تعمير هذه الأرض الجديدة التى أصبحت وطنهم الثانى . ونتج عن هذا الامتزاج السريع الذى تم بين الفاتحين من عرب وبربر وموالٍ بأهل البلاد تولد شعب جديد هو الذى نسميه الشعب الأندلسى حاملا كل مميزات تلك العناصر المختلفة التى انصهرت فى بوتقة شبه الجزيرة . وإذا بهذا الشعب يتكشف عن ذكاء متوقد وقدرة هائلة على العمل الجاد والحركة الدائبة فى سائر المجالات الحضارية ، وكأن الفتح العربى قد ولد فيه طاقة جديدة أقبل بها على الحياة فى ثقة وتفاؤل وعزيمة ماضية .

وكان هذا الشعب على وعى بأنه فى إسلامه وعروبته - والعروبة هنا مفهوم ثقافى أكثر مما هو مفهوم عرقى عنصرى - إنما هو امتداد للمشرق العربى ، ولذلك فقد أقبل أبناؤه منذ الجيل الأول على الرحلة إلى الشرق أولا لأداء فريضة الحج ثم للتزود من الثقافة العربية فى أصولها ومراكزها . والذى يطالع معاجم التراجم يروعه هذا العدد الهائل من الأندلسيين الذين كانوا يتجشمون مشاق الرحلة الطويلة مترددين على الحواضر الشرقية وما حفلت به من مجالس العلم ، وكانت هذه الرحلات مثيرة لروح المغامرة وحب الاستطلاع ، وهما أساس لكل نشاط فكرى مثمر للحضارة . ويعود

هؤلاء الراحلون إلى بلادهم لكى يودعوا أرضهم كل ما جمعوه من خبرات يُنَمُّونها جيلا بعد جيل . على أنهم لم يكونوا مجرد ناقلين أو مقلدين ، بل سرعان ماقدموا لنا نتاجا فكريا وحضاريا فيه كل سمات الأصالة وإن كان فى إطار الحضارة العربية الإسلامية .

ولهذا فإننا نتفق مع ما نادى به عدد من الباحثين المعاصرين الإسبان والأمريكيين مؤخرا من أمثال أميريكو كاسترو Américo Castro وخوان جوتيسولو Juan Goitisolo وفرانسسكو بيانوبيا Francisco Villanueva وجيمس مونرو James Monroe من أن إعراب إسبانيا عن هويتها وذاتيتها المستقلة لم يبدأ إلا بظهور «الأندلس» على مسرح التاريخ ، أى ابتداءً من الوجود العربى الإسلامى على أرض شبه الجزيرة .

والذى عرضناه فى الصفحات السابقة من الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية ليس إلا شاهدا على هذه الحقيقة . فقد قدم العرب إلى هذه البلاد ، فرأوا فيها مدنا قائمة ، فلم يهدموا شيئا منها ولم يغيروا من معالمها ولا أسمائها ، بل عملوا على تنميتها وزيادة عمرانها ، ولكن عملهم الأساسى كان الامتداد فى الريف وتعمير ما كان مهملا من أرضها واستثمار مواردها واعتصار كل ما يمكن أن يستخرجوه منها ، وهكذا حولوها إلى أرقى بلد فى القارة الأوربية ، وأصبحت حضارتهم هى النموذج الذى يحتذى ، ثم قدموا خبراتهم إلى مُسَاكنيهم - وأعدائهم فى الوقت نفسه - من أهل شبه الجزيرة ، بل لم يبخلوا بثمرات علومهم وفنونهم على من جاورهم من شعوب أوربا فانتفعوا منها فى إقامة صرح نهضتهم .

ويلفت النظر فى حديثنا عن الأعلام الجغرافية الأندلسية أنه إلى جوار ما رأيناه من مئات المدن والقرى التى استحدثها العرب واحتفظت حتى الآن بأسمائها العربية كانت هناك مدن وقرى أخرى ظلت محتفظة بأسمائها اللاتينية بل إن من منشآتهم ما حمل مثل هذه الأسماء ، كما أن هناك طائفة من الأعلام الجغرافية تتألف من مزيج من اللغتين ، وهى ظاهرة أشرنا إلى ما تمثله من كون المجتمع الأندلسى ثمرة لعملية التفاعل الكبرى التى تمت على أرض شبه الجزيرة بين العناصر العرقية المختلفة ، كما أنها دليل على التسامح الذى

اتسمت به سياسة المسلمين إبان سيادتهم وقوة دولتهم ، فهم لم يحظروا اللغة التى وجدوا أهل البلاد يتعاملون بها ، بل إنهم تعلموها وأدخلوا كثيرا من عناصرها فى لغة خطابهم ، وقد انعكست ظاهرة الازدواج اللغوى هذه حتى على لغة الأدب ، ونتج عنها فن الشعر الملحون أى الزجل الذى يرجع إلى أهل الأندلس فضل ابتكاره ، وكان من ممهدات الطريق إلى هذا الفن ظهور الخرجات العامية وهى خليط من العربية والعجمية أى اللاتينية الدارجة فى الموشحات الأندلسية .

على أن الثقافة الغالبة كانت هى العربية ، وهى التى اصطنعها أهل البلاد ، حتى الأقليتان اللتان ظلتا محتفظتين بديانتيهما فى داخل المجتمع الأندلسى أى النصارى واليهود ، ومن أجل هذا سمى هؤلاء بالمستعربين Mozárabes ، إذ رأوا أن اللغة العربية بغناها ومرونتها أصلح للتعبير عن ذواتهم . ومن جديد نرى فى أسماء الأعلام الجغرافية ما يمثل هذه الحقيقة ، فقد مرت بنا فى العرض السابق عشرات بل مئات من الأسماء العربية مطلقة على مواضع لم تطأها أقدام العرب أو كان وجودهم فيها عابرا محدودا لم يتجاوز سنوات قليلة . رأينا ذلك فى أسماء أعلام فى المحافظات الشمالية التى قامت فيها خلال الوجود العربى إمارات أو ممالك مسيحية معادية للأندلس الإسلامية مثل أشتوريش Asturias وجليقية Galicia وليون León وكنتبرية Cantabria وبلاد الباسك (البشكونس) Pais Vasco ونبرة Navarra وقطلونية Cataluña وقشتالة Castilla ، وكانت هذه الأسماء تبدو لأول وهلة لغزا محيرا للباحثين ، على أن تفسير ظاهرتها لم يعد الآن عسيرا بعد تقدم الأبحاث التاريخية واللغوية ، وهو أن معظمها كان مما أطلقه المستعربون الذين عاشوا فى الأندلس متشبعين بالثقافة العربية ثم هاجروا إلى الشمال ليعمروا تلك المناطق التى تخلى عنها المسلمون إما إعراضا عنها وإهمالا لشأنها أو على أثر ما وقع عليهم من هزائم اضطروا على أثرها للانسحاب منها . وعلى كل حال فهذا شاهد آخر على عمق التأثير الذى باشرته الحضارة العربية حتى فى الأقاليم الخارجة عن نطاق نفوذهم المباشر .

والذى نسجله فى النهاية هو أن السلطات الإسبانية بعد أن تم لها الاستيلاء على غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) قد صبت على بقية الشعب المسلم أقسى ضروب التنكيل والاضطهاد ، وكان من أقسى ما وقع على هؤلاء الذين اصطلح على تسميتهم بالموريسكيين Moriscos حظر استخدام اللغة العربية وتعقب كتبهم بالإحراق والإبادة ، ومع ذلك فقد بقيت هذه الأسماء العربية أعلاما على المعالم الجغرافية ، وكأنها تسخر من كل مراسيم الحظر ، وتتحدى مصدريها ، ذلك لأنها بقيت شواهد خالدة على عطاء المسلمين الحضارى لأرض شبه الجزيرة ، حتى حينما آل بهم الأمر إلى أن يصبحوا أمة مغلوبة على أمرها محرومة من كل مقومات ثقافتها .

وآخر ما نختم به هذا الحديث شهادة لعلم من أعلام الأدب الإسبانى فى عصره الذهبى هو كالديرون دى لاباركا Calderón de la Barca (١٦٠٠ - ١٦٨١) ، وهو شاعر ومؤلف مسرحى آثر فى آخر حياته أن ينخرط فى سلك الرهبنة وكان قد عاصر فى مقتبل صباه محنة الشعب الموريسكى وقرارات طرد مئات الآلاف منه بين سنتى ١٦٠٩ و١٦١٤ ، وقد أتت شهادته هذه فى مسرحية شعرية له بعنوان «حب بعد الموت» Amar después de la muerte وفيها يصور الثورة التى قام بها الموريسكيون فى جبال البُشَرّات Las Alpujarras بين سنتى ١٥٦٨ و١٥٧٠ بعد أن ضيقت السلطات عليهم الخناق حتى ألجأهم اليأس إلى الثورة . وقد أتت هذه الشهادة فى كلمة يتوجه بها أحد قادة هؤلاء الموريسكيين خوان مالك (فقد كانوا يستخدمون أسماء مزدوجة عربية وإسبانية) إلى خوان مندوثا Juan de Mendoza أحد رجالات السلطة :

« سيدى خوان مندوثا ، لتعلم أنه حينما كانت إسبانيا كلها / تحت حكم المسلمين / فقد كان المسيحيون فيها / مختلطين بالعرب تحت جناح التسامح / ولهذا فقد كانوا يدعون / ومازالوا بالمستعربين / وما كان أحدهم ليرى فى ذلك سبة ولا عارا / لأن المحنة التى يتعرض لها الرجال / ترفع من قدرهم وتعظم شأنهم / أكثر مما تسىء إليهم وتحط منهم / وإذا كان القدر قد أدار لنا ظهره / وحط على ظهورنا أثقال الذل والهزيمة / فإننا

من ســـلالة أولئك الفرسان المسلمين / الذين لم يكن رجالكم / أعظم منهم فروسية ولا أكثر شجاعة» .

ثم يضع كـالديرون على لســان خـوان دى مندوثا نفسه هذا الوصف لجبال البشرات وهو يربها لقائد الجيش الذى قدم لإخماد الثورة :

«استـمع إلىّ ياسـيـدى / هذه الجبـال التى تراها هناك / كـأنهـا نسـر رابض على ذروة صخرة / هى جبـال البشرات / هى حصون الموريسكيين التى اعـتـصم بهـا المسلمـون / والتى يريدون أى يعيدوا منها / حكم دولتهم البـائدة فى إسبانيـا / هى جبـال وعرة لعلوها الشـاهق / وخشـونة مطالعـهـا / ومنـاعـة مـواقـعـهـا / حتى إن إخـضـاعـهـا يعد عـمـلا مستحيلا / ... ومـا أكـثـر مـايخترقـهـا من وديان / وحقول خصبة / وحدائق جمة / تجعل طبيعتها آية فى الجمال / وفى كل مكان تنتشر فيها القرى / والمدن الصغيرة / التى تقوم على سفـوح الجبـال / ومـاأجـمل منظرها عند غـروب الشـمس / إذ تبدو بين الخضـرة التى تكسـو السفوح / كأنها صخرات بيض / تحدرت من قـمـة الجبل / ثم توقفت فى منتصف الطريق / ... ولديهم قطعان كبيرة من الماشيـة / ترعى فى تلك الســـفـــوح / ولو أن هؤلاء القـــوم لايتغذون باللحم / بقدر ما يتغذون بالفواكه / الرطب منهـا والجاف / أو بالخضر والبقـول / التى مهروا فى زراعتها / فالموريسكيون قوم لا يحسنون فقط / فـلاحة الأرض واستخراج كنوزها / بل يعـرفـون كـيف يفـجـرون من الصـخـور نفـسـهـا / كل نبـات طيب / وقـد اشتـهروا منذ قـــديم بالفـــلاحة / والمهارة فى الغـــرس والزراعـــة / حـتى إن ضـــربات فـؤوســهم / تحـمل الخـصـوبة إلى الصـخـور الجرداء !» .

كان هذا حال مسلمى الأندلس إبان ضعفهم وذلتـــهم ، فكيف كـانوا على عـهـد قـوتهم وعـــزتهم ؟ ... ألم يكن ابن حـزم على حق حينما هتف :

فيا درة الصـين سحقًا فقـد
غنيـت بياقـوتة الأنـدلـس

محمود على مكى
عضو المجمع

الحـــواشـــى

(١) عنوان الكتاب Historia de la dominación de los Arabes en España .

وعن كوندى وحياته وأعماله انظر : James T. Monroe : Islam and the Arabs in Spanish Scholarship, Leiden, 1970, p. 50-60.

(٢) Fr. Francisco Cañes : Diccionario español latino - arábigo, Madrid, 1787, pp. 7-35.

(٣) Eduardo Saavedra : La geografía de España del Idrisi Boletin de la Sociedad Geográfica, Madrid, 1881-1885.

فى مجلة الجمعية الجغرافية الإسبانية

(4) Francisco Simonet : Descripción del reino de Granada, Madrid, 1860, Granada, 1872.

(5) José Alemany Bolufer : La Geografía de la Península Ibérica en los escritores árabes, Granada, 1921.

(6) Hammer - Purgstall : Über die arabische Geographie von Spanien.

وهو بحث منشـور فى Akademie der Wissenschaften, المجـــلد الرابـــع عشر ، سنة ١٨٥٤ ص ٣٦٣ - ٤٢٤ .

كذلك قام عالم ألمانى آخر هو ماير ليبكه بدراسة أخرى للموضوع فى بحثه المنشور فى المجلد التكريمى للعالم الإسبانى مننذث بيدال :

فى Ortsnamen der Meyer - Lübke : Zur Kenntnis der vorrömischen iberrischen Halbinsel Homenaje a Menéndez Pidal ، مدريد ١٩٢٥ ، المجلد الأول ص ٦٣ - ٨٤

(7) David Lopes : Toponymia Arabe de Portugal, Revue Hispanique, t. IX, Paris, 1902

(8) Arnald Steiger : Contribución a la Fonética del hispano - árabe y de los arabismos en el ibero - románico y el siciliano, Madrid, 1932.

(9) Ramón Menéndez Pidal : Orígenes del español, 3ªed., Madrid, 1950.

(10) Federico Corriente : A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle, Madrid, 1977.

(11) Miguel Asín Palacios : Contribución a la toponimia árabe de España, 2ª ed., Madrid, 1944.

(١٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ١/٤٢٣ .

(١٣) حول عمران إسبانيا وأحوالها العامة فى ظل القوط . انظر فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٥٥٠ – ٥٥٣ .

(١٤) مقدمة ابن خلدون ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ص ٣٥٩ .

(١٥) الدكتور محمد بن شريفة : البسطى آخر شعراء الأندلس ، بيروت ١٩٨٥ ص ١٦٩ .

(١٦) الروض المعطار ، تحقيق ليڤى بروڤنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٧٣ .

(١٧) الروض المعطار ص ١٧٩ – ١٨٠ .

(18) Jaime Oliver Asín : Historia del nombre “Madrid” Madrid, 1951.

(١٩) تاريخ اسم مدريد ، وقد عرضنا نظريته فى كتابنا «مدريد العربية» ص ٦٥ - ٦٦ .

(20) Federico Corriente : El nombre de Madrid, en Madrid del siglo IX al XI, Madrid, 1990, p.p. 87-91.

فيديريكو كورنيتى : اسم مدريد ، فى كتاب «مدريد من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر».

(٢١) انظر فجر الأندلس ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

(٢٢) نفس المرجع ص ٣٨٨ .

(٢٣) انظر الحاشية رقم ٨ .

(٢٤) مدريد العربية ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(25) Jaime Olíver Asin : Origen árabe de “rebato”, “arrobda” y sus homónimos, Madrid, 1928 .

(٢٦) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٩ .

(٢٧) معجم البلدان ٥/ ٢١١ .

(٢٨) المقتبس من أنباء الأندلس لابن حيان ، تحقيق محمود على مكى ص ٣٨٠ - ٣٨١ والحاشية رقم ٦٠٩ ص ٦٥١-٦٥٢ .

(٢٩) عن هذه الغزوة ، انظر ليفى بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية - E. Lévi Provençal : Histoire de l’Espagne musulmane, Paris, 1950, II, p. 244.

(٣٠) عن هذه الأحداث ، انظر الحلة السيراء لابن الأبار ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس٢/ ٣٤٥.

(٣١) نفح الطيب للمقرى ، تحقيق إحسان عباس ١/ ٦٨٠ ، وديوان ابن خفاجة ، تحقيق السيد مصطفى غازى ص ٣٦٤ .

(٣٢) إلياس تيريس : «مواد لدراسة أسماء الأعلام الجغرافية المرتبطة بالأنهار» .

Elias Terés Sádaba : Materiales para el estudio de la toponimia hispano-árabe : Nómina fluvial, Madrid, 1986.

(٣٣) انظر المقتبس لابن حيان ، تحقيق محمود مكى ص ٢٩٦ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٢٨٧

(٣٤) المقتبس ص ٢٩٩

(٣٥) المقتبس ص ٣٨٠-٣٨١ من النص والحاشية رقم ٦٠٩ ص ٦٥١-٦٥٢ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٠٥-٤٠٩

(٣٦) جغرافية العذرى ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ص ٥٦-٥٩ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٦٤-٤٦٥

(٣٧) دراسة إلياس تيريس ص ٢٠٥-٢٠٦

(٣٨) المقتبس لابن حيان ، السفر الخامس ، مدريد ١٩٧٩ ص ٢٥٧ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٣٢٣

(٣٩) دراسة إلياس تيريس ص ٤١١ - ٤١٣

(٤٠) دراسة إلياس تيريس ص ٣٢٩

(٤١) المرجع السابق ص ٢٨٤ - ٢٨٦

(٤٢) الروض المعطار للحميرى ص ١٥١ ، ودراسة إلياس تيريس ص ٤٢٤ - ٤٢٥

(٤٣) دراسة إلياس تيريس ص ٤٢٨ - ٤٢٩

(٤٤) حول سفر بن عبيد الكلاعى وجهده الفلاحى انظر نفح الطيب ١/٤٦٧ - ٤٦٨

(٤٥) دراسة إلياس تيريس ٣٧٩ - ٣٨٢

(٤٦) المرجع السابق ص ٣١٢ - ٣١٨

(٤٧) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٧ - ٢٣٤/٤

(٤٨) دراسة إلياس تيريس ص ٣٧٣ - ٣٧٦

(٤٩) الأعلام الجغرافية لأسين بلاثيوس ص ٤٤

(٥٠) نفس المصدر ص ٤٤ و ٧٨

(٥١) نفح الطيب للمقرى ١٧٦/١

(٥٢) معجم البلدان لياقوت ٢١٨/٥ - ٢١٩

(٥٣) جمهرة الأنساب ص ٤٣٦ . وكان هذا الإقليم أيضا من منازل قبيلة قضاعة وقد سمى «أرْش اليمن» لأن بنى أمية أنزلوا به بنى سراج القضاعيين ووكلوا إليهم حراسة مايليهم من البحر فكان ما ضمنوه من المراسى يدعى «أرش اليمن» أى عطيتهم ونحلتهم (الروض المعطار ص ٣٧) .

(٥٤) الروض المعطار ص ١٦

(٥٥) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١٢٩/١

(٥٦) لفظ التن لاتينى الأصل وهو thunnus وهو مأخوذ من الإغريقية ، وبإسبانية اليوم atún ، غير أن اللفظ لم ينتقل إلى الإسبانية عن طريق اللاتينية وإنما عن طريق العربية بدليل أنه قد أضيفت إليه أداة التعريف العربية al ، ولم يحتفظ بلام هذه الأداة لأن التاء حرف شمسى . وهذا الحوت هو الذى يسمى فى العربية اليوم «التونة» ، وقد وصف لنا ابن عبد المنعم الحميرى الحوت المذكور فى معرض حديثه عن كورة شذونة Medina Sidonia (فى محافظة قادس الحالية) : «وبساحل شذونة يوجد حوت التن لا فى غيره من سواحل الأندلس ، فيظهر فى أول شهر مايُه ، لا يرى قبل هذا الشهر ، فإنه يخرج من البحر المحيط فيدخل إلى البحر المتوسط الذى يسمى البحر الرومى فيُصَيَّد مدة ظهوره أربعين يوما ثم يعود على مثل ذلك الوقت من العام الآخر » (الروض المعطار ص ١٠١) .

Santander سانتاندير
لاكورونيا La Coruña
Oviedo أُبيط
أشتوريش
كنتبرية
Bilbao بلباو
San Sebastian سان سبستيان
فرنسا
Lugo لُك
جليقية
León ليون
Vitoria فيتوريا
بلاد الباسك
Pamplona بنبلونة
Pontevedra بونتشدرا
Orense أورنسي
Burgos برغش
Logroño لوجرونيو
نبرة
Huesca وشقة
جرنة Gerona
قطلونية
Zamora سمورة
Valladolid بلد وليد
قشتالة
Soria سُريّة
لاردة Lérida
Zaragoza سرقسطة
برشلونة Barcelona
طركونة Tarragona
سلمنكة Salamanca
Segovia شنوبية
وادي الحجارة Guadalajara
Avila آبلة
مجريط Madrid
Teruel تيرول
Castellón قشتليون
ISLAS BALEARES
جزر البليار
منورقة
Toledo طليطلة
البرتغال
قصراش Cáceres
Valencia بلنسية
PALMA بلمة
ميورقة
يابسة
Badajoz بطليوس
المدينة الملكية Ciudad Real
البسيط Albacete
Alicante لقنت
Córdoba قرطبة
Jaén جيان
Murcia مرسية
Huelva ولبة
إشبيلية Sevilla
Granada غرناطة
Almería المرية
Málaga مالقة
قادس Cádiz
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط